

## الباب العاشر

فى معاملة الأحابب والخدام والأعداء والأصحاب

وبه تمت أبواب الكتاب

obeikandi.com

قال الشيخ أبو المحاسن الراوى من الأدب الأحاسن : فلما أبان الحكيم عن هذا الفضل الجسيم وكشف نقاب البيان عن مخدرات هذا التبيان ، فتلاً من وراء سجين ألفاظه وجود معانيه الحسان ، عظم فى أعين الأعظم ، وكبر لدى الأعراب والأعاجم ، ورفع أخوه وعظمه ذروه ، فأضاء مناره وعلا مقداره ، وملاً الآفاق أنواره ، ووقع من الملك على الاعتماد عليه اختياره ثم استزاده من فيض هذا العيوب واستسقاءه من خوض هذا الشؤبوب<sup>(١)</sup> ، واستطعمه من أخبار العقاب واليعقوب إن كان ثم بقية ، تجلو القلوب الصدية ، فامتثل الإشارة وحسن العبارة .

[٨٣] وقال : ثم أن أبا الحجاج دعا القبيح أبا الدجاج ، واختلى به دون أصحابه وقال له : أعلم يا جليس الخير وأئيس الطير ورئيس الدير ، أنى تحملت من النيؤ المنة العظيمة والجميلة الجسيمة ، حيث أرشدك إلى بابى ، ونظمت فى سلك أصحابى ، ولا جرم أنه قام بما يجب عليه ، وعرف مقدار إحسانى وميلى إليه ، وأنه لأوثق أعوانى وأصدق خلانى ، وصاحب قديم ومخلص عديم النظير نديم ، وصديق كافى وناصح مصافى ، وإنى لأتيمن بطبعته وأتبرك بمشاهدته ، واستنجد بأرائه ، واستصبح فى المهمات المظلمة بلامع ضيائه ، ولقد حصل منك على عضد معاضد وساعد مساعد ، وكهف وذخر وسند وظهر ، فإياك أن تترك ذيل مودته أو ترغب عن صحبته ومحبته ، وإن تقتصر يا ذا الوقوف فى صداقته على الوقوف ، فأفضل المحبة وأكمل المودة ما تزايد على مر الدهور ، وترادف على كرى العصور ، وثبت أصله وغزرت فروعه ، وفاض من سويداء القلب على مجارى الجوارح نبوعه ؛ بحيث يقع الاتحاد ، ويمتزج بالصفاء الوداد ، فقد قيل : لا تصبح المحبة بين اثنين حتى يصيرا كالعينين حيثما نظرت إحداهما شزرا مالت معها

(١) المياه المتجمعة من شدة إندفاع المطر .

تابعة الأخرى ، بل يصيرا كالنفس الواحدة لا كل واحدة على حدة ولا كما تقول الملاحدة ، بل يكمل لكل واحد بالآخر الهنا ، ويحصل له بوجوده السنا ، وإذا خاطبه قال : يا أنا ولا تعمل يا أكمل كما قيل :

مَلَأَتْ حُشَاشَتِي شَوْقًا وَحُبًّا      فَإِنْ تَرَمَّ الزِّيَادَةَ هَاتِ قَلْبَا

فإن الفتح عنده الفتوح ، وباب الفضل والزيادة مفتوح ، وكرم الله لا يضاهاى ، وفضله كعلمه لا يتهاهى وانظر يا فضيل ، وذا العلم العريض الطويل إلى ما قيل وهو :

أَيُّهَا السَّائِلُ عَن قِصَّتِي      أَنَا مَن أَهْوَى وَمَن أَهْوَى أَنَا  
نَحْنُ رُوحَانٌ حَلَلْنَا بَدَنَا      مَن رَأَانَا لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَنَا  
نَحْنُ مَذْكُونَا عَلَى عَهْدِ الْهَوَى      تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ بِنَا  
فَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنِي      وَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَنَا

وألطف من هذا وأرصن ما قاله القائل وأحسن وهو :

أَنَا وَالْمَحْبُوبُ كِنَا فِي الْقَدَمِ      نَقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِّنْ غَيْرِ مَيْنِ  
فَبَرَّأْنَا اللَّهَ إِذَا أَظْهَرْتَنَا      مَهْجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي بَدَنَيْنِ  
فَإِذَا مَا الْجِسْمُ أَمْسَى فَانِيَا      تَلْتَقِينَا وَاحِدًا مِّنْ غَيْرِ بَيْنِ

ولقد ذكرك عندى بأنواع الفضل وبوفور التجارب والعقل ، وهذا يدل على نصحه وقوة دينه ، وصدقه فى المحبة وحسن يقينه ، ولم يذكر غير الواقع ولا جازف فيما أنهاه إلى المسامح ، بل قال قليلا من كثير وقطرة من غدیر ، ولم يخبر بذلك غير خبير فإنى أعرفك كما عرف ، ووقفت على فضائلك كما وقف ، ثم أنت عندى فوق ما وصف فأريد منك نصائح بالخير لوائح ، تتضمن فوائد وعوائد وفرائد ، تكون لنهم الحكمة موائد ، ولشهم الحكام قوائد ، ولنحور ألباب المعقول وأرباب المنقول قلائد ، ولضبط أساس الملك والدين قواعد وعقائد .

فتلقى مثاله بالامتثال ، وقبل الأرض في مقام العبودية ، وقام وقال :  
لتحط العلوم الشريفة والآراء العالية المنيفة ، أن صانع العالم تعالى وتعاضم ؛  
بنى أمور المبدأ والمعاد ، وما بينهما من معاش مستفاد على دليلين عظيمين  
جليلين .

أحدهما : للعقل ؛ الذي هو مناط التكليف .

وثانيهما : قواعد الشرع الشريف ، فإن أردت أن تكون سعيد الدارين  
فاستمسك بأذيال هذين الدليلين ؛ أما العقل فهو الدليل القاطع على وجود  
الصانع ، وهو مستقل بالقطع غير محتاج إلى السمع ، وكما هو مستقل  
بالدلالة على وجود ذاته ؛ كذلك هو مستقل بالدلالة على تحقيق صفاته ، ثم  
ورد بذلك الشرع فتأكدت في وجود الصانع دلالة العقل بالسمع .

وأما وحدانية الصانع فكل من العقل والنقل دليل عليها قاطع ، وقد  
تظافرا بالاستباق إليه وتظاهرا في الدلالة عليه بقول الكافر يوم المصير ﴿لَوْ  
كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] .

وبالعقل والسمع يستقيم أمر المبدأ والمعاش ، وبالسمع فقط ميت المعاد  
عاش ؛ لأن أمور المعاد من الشرع تستفاد ، والعقل في ذلك تابع سامع  
لأوامر الشرع طائع ، والمسموع في ذلك دليل قاطع .

وعلى كل تقدير أيها الملك الكبير فاجعل العقل وزيرا ، تجده لك في  
ظلمات المشكلات سراجا منيرا واتخذ النقل هاديا ونصيرا ، يكن بينك وبين  
الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وعامل الرعية بالعدل يعاملك الله  
بالفضل . واعلم أن الدنيا في معرض الزوال وأنه لا بد عنها من الانتقال ،  
وأن الله سبحانه وتعالى وجل سلطانه جلالا ، اقتضت حكمته وجرت بين  
عباده سنته ، أن يكون الإنسان على خلاف ما فطره الرحمن ، فإنه خلقه

للعبادة وركب فيه عناده ، وأقامه للعمل وجبله على الكسل ، فأمره بالصلاة وهو كسلان ، وبالصوم وهو شهوان ، وبالزكاة وحبب إليه المال ، وبالحج وكره إليه الانتقال ، وبالرضا وركز فيه الغضب ، وبالتسليم والصبر وخمره<sup>(١)</sup> بالضجر والصخب ، وبالتواضع ووضع فيه التيه ، وبالتخلق بأخلاق خالقه وفيه ما فيه ، وحكم عليه بالموت وقد تحقق أنه ليس له منه فوت ، وهو يكره عن الدنيا التحويل ، وأقل أقسامه أنه يحب العمر الطويل .

وعلى هذا قد تعود أن يفعل في المكان المترود أفعال المقيم المؤيد ، والدائم المخلد ، وبنى بناء من لا ينتقل ، وعن قليل يتركه ويرتحل ؛ لا سيما من تعلق بالدنيا قلبه ، وتشبث بالمال والولد والجاه والتحكم حبه ، وقد أخبر العزيز الوهاب في أصدق كتاب وأوثق خطاب ، فقال : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَيْنِ وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

فالنفس مائلة إلى الإقامة وراغبة في دوام السلامة ، تحب طول العمر في الزمان ، وإن أحوجت الثمانون السمع إلى ترجمان ، وقد قيل :

وأحسن ما كان الفتى في زمانه مع السعد والجاه العظيم معمرأ

وأشهى ما سمع الحاكم وأذ ما تلقاه من قول الناظم قوله :

فلا زلت بين الورى حاكماً بجاه عريض وعمر طويل

ولقد بلغنى يا ملك الزمان أن الملك العادل أنوشروان ، كان بنى أساس ملكه على العدل ، وعامل رعيته بالإحسان والفضل ، ويكفيه من الفضائل وحسن السمائل ، قول سيد الأواخر والأوائل : (ولدت في زمن الملك

(١) أى خالطه .

العادل»<sup>(١)</sup> وقال الرحمن فى محكم القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ  
وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] .

وقد قيل فى الأقاويل : لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا  
مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل ، فلا ملك إلا بالعدل .

ومن أقوى الصفات العدلية عمارة بلاد الرعية ، وبذل الجهد فى  
العمارة ليكثر الربح وتقل الخسارة ، فإذا عمرت البلاد وترمم الطريف  
والتلاد، حصلت الأموال ، وكثرت الرجال ، وانتظمت الأحوال .

[٨٤] فقد بلغنى يا ملك الزمان ؛ أن الملك أنوشروان كان مارا فى  
سيرانه بين جنده وأعوانه ، فرأى شيخا كأنه قوس قطان نثر على رأسه قزح  
أقطان<sup>(٢)</sup> ، وهو فى بعض البساتين يفرس نصب تين ، فتعجب من انحناء  
قامته وبياض هامته ، مع شدة حرصه وتعبه ، على نصب غرسه ونصبه ،  
فقال له : يا ذا التجارب ومن هو من شرك الفناء هارب ، إلام ترتع فى  
ميادين الأمل وقد تطوقت بأوهاق الأجل<sup>(٣)</sup> ، تبنى وأركان جسدك واهية ،  
وتغرس وقوائم بدنك كأعجاز نخل خاوية ، وربيع شبابك قد استولى عليه  
خريف الهرم ، وصيف وجودك قد أدركه شتاء العدم ، ومحت نسيم طراوتك

---

(١) الحديث ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٢/٣٤٠) وفيه : ذكره الصنعائى بالتكثير ،  
وقال : إنه موضوع ، وقال فى المقاصد : لا أصل له . وقال الحلبي فى الشعب : لا  
يصح هذا الحديث ، وإن صح ؛ فاطلاق العادل عليه لتعريفه بالاسم الذى يدعى به لا  
يوصفه بالعدل والشهادة له بذلك ، أو وصفه بذلك بناءً على اعتقاد المعتقدين فيه أنه  
كان عدلا كما قال تعالى ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ الآية . أى ما كان عندهم آلهة .  
ولا يسمى رسول الله ﷺ من يحكم بغير حكم الله عادلاً . والله أعلم .

(٢) قزح أقطان : قطع قطن صغيرة منثورة ، أى أن شعره صار أبيض كالقطن لكبر سنه .

(٣) أوهاق : مفرد ما وهق : وهو الحبل تنقاد به الدابة ، أى قيود الأجل .

عواصف الذبول ، ومسحت قوى عبالتك<sup>(١)</sup> بقواصف النحول ، وقد آن أن تغرس للأخرة ، فإنك قد صرت عظاما ناخرة .

فقال : يا ملك الزمان وعادل الأوان ، قد تسلمناها عامرة فلا نسلمها غامرة ، قد غرسوا وأكلنا ونغرس ويأكلون ، وفي الحقيقة كلنا زارعون وغارسون :

لَقَدْ غَرَسُوا حَتَّى أَكَلْنَا وَإِنَّا لَنَغْرَسُ حَتَّى يَأْكُلَ النَّاسُ بَعْدَنَا

وأبعد فلاح عن الرشد والفلاح ، من يتسلم المعمور ويتركه وهو بور .

فأعجب أنوشروان وفور وعقل الشيخ الفنان ، وحسن خطابه وسرعة جوابه ، فقال : زه ؛ يعنى أحسنت ، وهى كلمة تحسين ، ولفظة إعجاب وتزيين ، وكانت علامة للإحسان إذا تلفظ بها السلطان ، يعطى المقول فى حقه أربعة آلاف درهم لرفقه ، فأعطوا الشيخ الهم<sup>(٢)</sup> ، أربعة آلاف درهم .

فقال : أيها السلطان إن الغراس يثمر بعد زمان ، وإن غراسى لحسن طاعته أثمر من ساعته ، فقال : زه ، فأعطوه أربعة آلاف أخرى ، ورفعوا منزلته قدرا .

فقال : وأعجب من هاتين القضيتين أن الغراس يثمر مرة وأنا غراسى يثمر مرتين ، فقال : زه ، فأعطوه القدر المعلوم ، وزادوه فى التكريم والتعظيم والتفخيم .

وقال له أنوشروان : إن أمهلك الزمان حتى تأتيني بباكورة هذا البستان فأنا أقطعك خراجه وأقضى مالك من حاجة ، فأمهله الدهر وطال به العمر ، وأدرك ما نصبه ولم يخيب الله تعبته ، فحمل إلى الملك الباكورة ووفى له الملك نذوره .

(١) العباله : ضخامة اللحم واكتنازه .

(٢) العليل .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ ليعلم مولانا الملك الأجل أن الدنيا وإن كانت ظلا زائلا وحائطا مائلا ، فهي مزرعة للأخرة وإن الآخرة هي الدار الفاعرة ، وأن الله تعالى وجل جلالا ، ولاك هذه المزرعة ، وعلق بالأوامر العلية ما بها من مضرة ومنفعة ، وحكمك فى البلاد وملكك رقاب العباد ، فإياك أن تغفل عن عمارتها بالزراعة ، أو تسلم زمام تدبيرها إلى يد الإضاعة ، فإنك منقول منها ومسئول عنها ، وإن مصالح عساكرك بها منوطة ، وأحوال ملكك بالعساكر مربوطة ، فكلما تعمرت الضياع والقرى ، ترفهت الأجناد والأمرأ ، واستراحت الرعية واستمرت منازم الملك مرعية ، وتوفرت الخزائن واطمأن الظاعن والساكن ، وقلت المظالم وكفت أكف الظالم ، وملاك هذا كله العدل والاستواء ، ومجانبة الأغراض الفاسدة والهوى ، وهذا الذى يقتضيه مقامك ويتم به مرامك ، فإن الملك إنما هو ملك بالأجناد فلا بد له من عمارة البلاد ، والنظر فى مصالح العباد ، لينتظم بنظره مصالح العالمين ، ويستقيم أمر العالم إلى الحين الذى قدره أحكم الحاكمين ، فإن سنة الله جرت على هذا السنن ، وما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن : ولهذا قال سيد سكان الخيف<sup>(١)</sup> : «أنا نبي السيف»<sup>(٢)</sup> . والجهاد فرض عين على الملوك لا على الفقير والصلعوك ، فالملوك فى نوع من السيادة ، تقتضى من المال ازدياده ليقيموا من الإسلام عماده ، ويقتنوا من الشرع مراده ، ويقصموا الكفر وعقاده ويبيدوا أهله وأولاده ، وينهبوا طرافه وتلاده ، ويوطنوا سنابك الإيمان ببلاده .

وواجب على كل حاكم أن يبذل فى ذلك اجتهاده ، ويجعل الجهاد إلى الآخرة زاده وعقاده ، ويصون عن الكفر بلاد الإسلام وعباده إلى يوم يلقى

- (١) الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . ومنه سمي مسجد الخيف من منى ، وهو وادى بطحاء مكة نزله رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٤١٥٨) .
- (٢) ذكره المتقى الهنذى فى كنز العمال (٣٢٠٨٦) بنحوه ، وعزاه للحكيم من طريق حنيفة رضي الله عنه بلفظ «أنا نبي التوبة ، وأنا نبي الملحمة» .

معاده ، فيجازيه الله الحسنى وزيادة هذه طريقة الملوك ومن تبعهم فى الاقتداء والسلوك ، وإياك أيها الملك العظيم وصاحب الملك الجسيم ، وأخذ المال من غير حله ، ووضع فى غير محله ، ولو كان موضع الخير وقصد به نفع الغير ، فإنه لا يفى ذلك بذأ ولا يقوم نفعه بما فيه من أذى ، فذلك كإنشاء المغارس وبنيان المدارس ، وتنوير المساجد وتعمير المعابد ، وسد الثغور ، وعمارة القبور ، وإقامة القناطر والجسور ، وعمل مصالح الجمهور ، وإطعام الطعام وكفالة الأيتام ، والحج إلى بيت الله الحرام وإعطاء السائل ، وإغناء الأراامل وصرف النفقات ، وإخراج الزكوات والصدقات ، ومثله الوبيل كما قيل :

بَنَى مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ فَصَارَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرَ مُوقَّتٍ  
كَمَطْعَةِ الْإِيْتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا لَكَ الْوَيْلُ لَا تَزْنِي وَلَا تَتَّصِدِّي

قال من لم يخف عليه أخفاؤها ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا﴾ [الحج: ٣٧] . ثم أخبر بخبر ما يصدر عنكم فقال ﴿وَأَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] . فإن طلب من هذا أجر فهو خسران وكفر ؛ لأنه فى صورة الاستهزاء ، وهل يطلب بقبیح الحرام حسن الجزاء ، بل الواجب فى هذا على كل من آذى رد المظالم ، وخلص ذمة الظالم ورجع الحقوق إلى أهلها وإيصالها إلى محلها ، أما يرضى ظالم غوى وتحمل الحرام هوى ، أن يتخلص سواء بسوا ، وشر الناس يا ذا النباس من اتبع قضية إياس ، فسأل العقاب عن بيان هذا الخطاب .

[٨٥] فقال : كان فى الشام شخص من اللئام ، تصدى لفصل الأحكام ومشى من الظلم فى ظلام ، وشرع فى أخذ الأموال على سبيل التعدى والوبال ، فكان إذا أخذ من أحد ألفا ادخر لنفسه من ذلك نصفاً ، وتصدق بالخمسة الأخرى ، على أولى الضرر والضر كل واحد درهما ، وعد ذلك مغنماً ، وقال : هذه فائدة علينا بالريح عائدة ، الحسنات خمسمائة والسيئة واحدة ، وواحد يدعو علينا ، وخمسمائة يتوجهون بالثناء والدعاء إلينا ،

ثم قال : ذلك الجاحد ولا تعجز الخمسمائة عن الواحد ، هذا وإن كان والعياذ بالله صرف ذلك الحرام فى الفسق والملاء ، ونيل الأغراض الفاسدة وإقامة الجاه ، فهو أشد فى النكال وأعظم فى الوزر والوبال ، وهذا المقام يطول فيه الكلام وأقل ما فى الباب أن الحلال حساب والحرام عقاب .

وقد سمعت يا جليل القدر ما نطق به السيد الصدر ، الذى أخجل نور طلعت الشمس والبدر ، سيد الأنام ومصباح الظلام ، وحبيب الملك العلام ، عليه أفضل الصلاة والسلام يوماً لأصحابه العادة الكرام ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجمعنا فى مستقر رحمته وإياهم : «أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى ، وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ؛ فإن قنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار»<sup>(١)</sup> . وهذا إذا كانت هذه للطاعات من الصلاة والصوم والزكاة ، واقعة فى محلها ومصاريفها فى خطها ، فإنها لا تنقذ الظالم إلا فى وفاء المظالم ، وأما إذا كانت من الحرام ومنشأ غراسها من مياه الآثام ، فهى وبال على وبال وتبور فوق نكال ، ووهن على كسر ، ونقصان فوق خسر .

وقال أيضا أفاض الله عليه سبحانه صلواته فيضا : **يَتَوَدَّنَ الْحَقَّوْقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يَقَادَ لِلشَّمَاةِ الْجُلُجَاءِ مِنَ الشَّمَاةِ الْقِرْنَاءِ»<sup>(٢)</sup> . فاستعد بالله**

- 
- (١) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨١) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، والترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحرب (٢٤٢٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح .
- (٢) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الصلب والصلص (٢٤٢٠) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

يا مولى الطير ومولى الخير ، من نار هذا الشرر أن تتفرق طاعتك شذر مذر<sup>(١)</sup> ، وأعيذك يا سلطان الصافات وما اكتسبته من الطاعات والخيرات ، أن ينقل إلى ديوان غيرك ، أو يفوز بخيرك سوى طيرك ، اللهم إلا أن يكون يا ذا الوقار والسكون ، على وجه ما قال من أحسن المقال :

وَيَكْتَسِبُ الطَّاعَاتِ دُخْرَ الْعُلَمَاءِ      يَجُودُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْعَاصِي

أو على وجه ما قيل وأحسن به من وجه جميل :

يَجُودُ بِمَا ضَنَّ الْجَوَادُ بِمِيبِهِ      مِنْ الْوَفْرِ بَلْ لَوْ أَمَكَّنْتَهُ شَمَائِلَهُ  
لَعَادَ عَلَى الْمَرَضَى بِصِحَّةِ جَسْمِهِ      وَجَادَ عَلَى الْمَوْتَى بِعَمْرِ يُطَاوِلُهُ  
وَمَنْ عَلَى النَّوَكَى بِوَأْفِرِ عَقْلِهِ      وَقَسَمَ فِي الْحَمْقَى مِنَ الرَّأْيِ كَامِنَهُ<sup>(٢)</sup>  
وَتَقَلَّ مِيزَانُ الْمُخِيفِ بِأَجْرِهِ      لَدَى الْوِزْنِ لَمَّا آدَ بِالْوِزْرِ كَاهِلُهُ<sup>(٣)</sup>  
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ      لَجَادَ بِهَا فَنَيْتِقَ اللَّهُ سَائِلَهُ

**ولأجل هذا الخطر العظيم والخطب الجسيم ؛ تورع عن الحلال**

الزاهدون ، وشمر عن التلوث بالدنيا ذيل الرغبة العابنون ، قال سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر ((لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منيا كافرا شربة ماء))<sup>(٤)</sup> . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام، ((اللهم ارزق آل محمد قوتا))<sup>(٥)</sup> .

(١) شذر مذر : أى تفرق مستتأ فى كل اتجاه ونم يبق له أثر .

(٢) النوكى : الحمقى .

(٣) آد : أى تقل عليه الجملى .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠) من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة النبى صلى الله عليه وسلم وأهله (٢٣٦١) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ومع هذا كله فالملك والرعية أمانة ومن تقلد ذلك فقد أوجب على نفسه ضمانه ، فليتجنب خيانتته ولا يشين بها أمانته ، قال صفوة الله تعالى ، وخيرته من بريته : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»<sup>(١)</sup> . ومصادقه قول رب العالمين وملك الملوك والسلاطين ، وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

فاعلم يا ملكا أعطى الزمان أمانه ؛ أن هذا الملك الذى بيدك هو من جملة الأمانة ، التى أشفق السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها خوفا من النكال والوبال ، وخشية أن لا يفين بحقوق حملها ، أو يضعنها فى غير محلها فيعاقبن ، أو بالعتاب يخاطبن فتعفن عن الرغبة فى الثواب ، خوفا من العتاب والعقاب ، وعملن بموجب ما قيل :

مَجْرَتِكَ لَا قَلَىٰ مِنِّي وَلَكِن	رَأَيْتُ بَقَاءَ وَتَكَ فِي الصَّدُودِ <sup>(٢)</sup>
كَهَجْرِ الْحَائِمَاتِ الِوَرْدِ لَمَّا	رَأَتْ أَنَّ الْمَنِيَّةَ فِي الْوُرُودِ
تَلْبِيضُ نَفْسِهَا ظُلْمًا وَتَخْشِي	حَمَامًا فَهِيَ تَنْظُرُ مِنْ بَعْدِ
تَصُدُّ بِوَجْهِ ذِي الْبَغْضَاءِ عَنْهُ	وَتَرْمُقُهُ بِالْحَظَائِطِ الْوُدُودِ

ثم حمل هذه الأمانة بنو آدم لما قدره وقضاه العلى الأعظم فى سابق القدم ، ولما فيها من أحكام وحكم ، وأن الصادق المصدوق أخبر ، فيما روى عنه أبو ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : «ويا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»<sup>(٣)</sup> . فمن جملتها الصلاة ، والصوم والزكاة ، والوضوء والاعتسال ، ومراقبة ذى الجلال فى السر والإعلان ، بقدر الطاقة والإمكان ، وعلى هذا جميع الطاعات وأنواع

- (١) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب «وهو أنفسكم وأهليكم نارا» .  
 (٢١٨٨) من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه .  
 (٢) قلى : بغض . الصدود : مفرد الصد : وهو الإقتراق والهجر .  
 (٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب الإمارة ، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة  
 (١٨٢٥) من طريق أبى ذر رضي الله عنه .

العبادات هي في رقاب العباد أمانات ، ومن أعظمها وأهمها وأحكمها ؛  
الإمرة، والحكومة ، والتصدي لفصل الخصومة ، والسلطنة العلية ، وأمور  
الملك البهية ، والقيام بأمور الرعية .

فيجب على السادة الحكام ومالكي أزمّة الأنام ، أن يراقبوا الله تعالى  
في كيفية أدائها ، ويطلبوا أنفسهم على ممر الأنفاس بالقيام بوفائها ، ويراعوا  
أوامر سلطان السلاطين في أمور عبيده المستضعفين خصوصا المظلوم  
والفقير ، والضعيف والمسكين ، فإذا عاملوا عباد الله بالعدل عاملهم الله عز  
وجل بالفضل ، قال الله المنان في محكم القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ  
وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] . وقال السيد الكامل والسند الفاضل أشرف الأواخر  
والأوائل ، صلى الله عليه صلاة تفنى البواكر والأصائل<sup>(١)</sup> : «سبعة بظلمهم  
الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل»<sup>(٢)</sup> . بدأ في هذا الفصل من ذكر  
الصفات بالعدل ، والعدل يا ذا الوجه الخير الوسط ، والوسط هو الخير .

قال من أمره قهر وسطا ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا  
شُهَدَاءَ﴾ [البقرة: ١٤٣] . أي للأنبياء تشهدون لهم على أمهم لعدالة فيكم  
﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] . أي يزكيكم ، أي وكما جعلنا  
نبيكم إمام القبلتين حائز الفضيلتين ، جعلناكم حائزين خصلتين بالغين مرتبتين؛  
وهما كونكم عدولا شهداء على الناس للأنبياء ، مقبولي الشهادة في الأداء ،  
وكون الرسول معدلكم وبتزكيتته على الأمم مفضلكم ، وقال صلى الله عليه  
وسلم ، وشرف وكرم ، وفخم وعظم : «عدل السلطان يوما يعدل عبادة  
سبعين سنة»<sup>(٣)</sup> . وقال عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام «والذي نفس  
محمد بيده أنه ليرفع للسلطان العادل إلى السماء ، مثل عمل جملة الرعية» .

(١) البواكر : مفرد البكرة وهي أول النهار والأصائل : مفرد الأصيل وهو آخره .  
(٢) الحديث أخرجه الترمذي : كتاب الزهد ، باب ما جاء في الحد ، في الله (٢٣٩١) من  
طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .  
(٣) الحديث : ذكره المتقى الهندي في كنز العمال (١٤٦٢٤) وعزاه للطبراني في الكبير ،  
والبيهقي من طريق ابن عباس رضي الله عنه بلفظ (يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة)

وعن أبي هريرة رضي عنه قال : «ثلاثة لا ترد دعوتهم؛ الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم» (١) .

وروى كثير بن مرة رضي عنه قال ، قال عليه الصلاة والسلام : «السلطان ظل الله في الأرض ؛ يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإثم وعلى الرعية الصبر» (٢) .

وعن أبي هريرة رضي عنه يرفعه «لعمل الإمام العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد في أهله مائة سنة أو خمسين سنة» (٣) . وقال قيس بن سعد ستين سنة .

واعلم أيها الملك الأعظم واسلم ، أن العدل ميزان الله تعالى في الأرض ؛ به ينتصف بعض الرعية من البعض ، وبه يؤخذ للضعيف من القوى ويعبد الله على الصراط السوي، ويتميز الحق من الباطل ، والحالي من العاطل ، وهو من صفات الذات وأعظم الصفات ؛ بمعنى أن الله تعالى عز وجل جلالاته أن يفعل في ملكه ما يشاء فيؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويحكم ما يريد والخلق كلهم له عبيد ، وجميعهم بعض ملكه نافذ فيهم سهم أمر ملكه ، فلا اعتراض على فعل المالك ، ولا فيما يسلك بمملوكه من المسالك ، ولا مجال لاعتراض عبده على ذلك ؛ لاسيما إذا كان مولاه كريما وفي أفعاله مدبرا حكيما ، فمن عرف أن الله عدل وأن أفعاله جارية بين العدل والفضل ، يتلقى نعمة بالصبر ،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي : كتاب الدعوات ، باب في العفو والعافية (٣٥٩٨)

من طريق أبي هريرة رضي عنه ، وقال : هذا حديث حسن .

(٢) الحديث : أورده البيهقي في مجمع الزوائد (١٩٦/٥) من طريق ابن عمر رضي عنه ،

وقال : رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدى وهو متروك . وذكره المتقى

الهندى في كنز العمال (١٤٥٨١) وعزاه للبزار عن ابن عمر .

(٣) تقدم في الذي قبله .

ويقابل نعمه بالشكر ويطمئن خاطره ، وتسكن إلى مولاه سرائره ، فلا يستقبح موجودا ولا يستهجن مفقودا ، ولا يستنقل حكما ، ولا يرى في الكون ظلما ، بل يستقبل الأحكام بالرضا ويستسلم لموارد القضا ، ويقابل العوارض بما قاله ابن الفارض (١) :

وكلُّ أذى في الحبِّ منك إذا بدأ جعلتُ له شكراً مكان شكيتي

وأعدل المخلوقات وأوسط الكائنات الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم أعدل الخلق مزاجا وطبيعة ، وأقوم الناس منهاجا وشرعية ، وأوسط البشر أفعالا ، وأقسطهم أعمالا وأقوالا ، وإنما يعترض على أقوالهم ويتعرض لأفعالهم من هو عن الصواب منحرف ، وعن جادة الحق منصرف ، ومن عين بصيرته عمياء عن مراقبة التحقيق ، كالأعمى الذي خرج وهو ماش عن سواء الطريق ، فيعثر في شوك أو حجر أو يصدمه حيوان أو شجر ، فيقول : نحوا هذا عن الطريق ؛ فإنه يحصل للمارة تعويق ، ويعيب على واضعه وإنما العيب في طباعه ، والجهل منسوب إليه لعمى قلبه وعينيه ، كما قال ذو الخويصرة لسيد الرسل البررة لما قسم الغنيمة قسمة مستقيمة : أعدل فأجابته الكامل المكمل بأنه : ((إن لم يعدل فمن يعدل)) (٢) . وإنه أى ذا الخويصرة الذى أعمى الله بصره خاب وخسر ، ولاقى اليوم العسر إن لم يعدل ذلك المفضل ، وكيف يقال هذا الكلام لمثله عليه الصلاة والسلام ، وقد أمره الله تعالى بالعدل ، ونشر سر هذا النقل وأقر عينكم ، بقوله ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] .

- (١) ابن الفارض : عمر بن علي الفارض ، من كبار المتصوفة وأعلامهم . وهو أيضاً شاعر عظيم له ديوان ؛ أشهر ما فيه التائية فى نظم السلوك ، وهو مصرى عاش فيها زاهداً منتسكاً طوال عمره . ومات ودفن بها . سير أعلام النبلاء (٥٧٠٢) .
- (٢) جزء من حديث أخرجه البخارى : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام (٣٦١٠) من طريق أبى سعيد الخدرى بلفظ ((ومن يعدل إذا لم أعدل)) الحديث .

قال الأسد الغالب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجعل إلى رضوانه له أحسن وجهه : إمام عادل خير من مطر وابل<sup>(١)</sup> ، وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم .

وقيل : الملك يدوم مع العدل ولو كان الملك كافرا ، ولا يدوم مع الظلم ولو كان الملك مسلما ، وما تعاطى حاكم ذو فضل فصل قضية فى فصل ، أحسن من سلوك طريقة العدل ، ولذا بقى اسم أنوشروان مخندا بالعدل على مر الزمان وإلى يوم ينصب الميزان مع أنه كان مجوسيا يعبد النيران : والسنة التى اخترعها بالسلسلة التى وضعها باقية فى ممالك الصين ، معمول بها إلى آخر حين .

[٨٦] وقيل : إن أنوشروان كان شديد الوداد للاصطياد وكان يعشق البازى والزُرُوق<sup>(٢)</sup> ، والصقر والباشق والبيدق<sup>(٣)</sup> ، فسأل يوما من البازدار لما كانت هذه الأطيار قصار الأعمار؟ قال : لأنها تظلم الطيور ، والظالم عمره قصير ، فنتبه بهذه الكلمة واتعظ وكف يده عن الظلم واحتفظ ، ثم أسس قواعد العدل فانتشر ذكره إلى يوم الفصل ، ويكفيه من الفضائل قول السيد الكامل «ولدت فى زمن الملك العادل»<sup>(٤)</sup> .

[٨٧] وروى : أن بعض الملوك العادلين والحكام الفاضلين ؛ استولى عليه الكبر ووقر فى أذنه وقر وقر وكان قبل الصمم فى العدل والكرم كما قيل :

وَأَنَّهُ مَظْلُومٌ وَغَنَّةٌ سَائِلٌ عَلَى أُذُنِهِ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ فِي الْفَمِ

(١) مطر وابل : الشديد الضخم القطر .

(٢) البازى : طير من الجوارح يصاد به وهو أنواع كثيرة . الزروق : طائر صياد شبيه بالصقر والباشق .

(٣) الباشق : طائر من أصغر الجوارح . البيدق : طائر من الجوارح فى حجم الباشق .

(٤) الحديث تقدم من قبل .

فحزن لفقد سمعه وتأسف وتحرق وتلهف وتأرق وبكى ، وتأوه واشتكى، وقال : ما أتلّهف من عدم سماع الحديث إلا على فقدى صوت المستغيث ، ولا كنت أتلدّذ من متكلم إلا بالإصغاء إلى خطاب المتظلم ، ثم قال : ولئن حرمت ذلك من طريق الأخبار فلأتوصلن إليه من طريق الأبصار، ثم أمر بإشهار النداء في الأطراف والأرجاء أنه من كانت له ظلامه فليظهر له علامة ، وهى أن يلبس ثوبا أحمر ويقف فوق ذلك التل الأخضر ، لنعرف علامته ونكشف ظلامته .

[٨٨] وقيل : إن السلطان السعيد ، نور الدين الشهيد<sup>(١)</sup> ؛ لما أمر ببناء دار العدل ، وعزم أن يقيم فيها للحكومات الفصل ، أدرك الأمير الكبير صاحب الرأى المنير أسد الدين شيركوه<sup>(٢)</sup> ، ما يعتمده السلطان ويرجوه ، وما يحمله على ذلك ويدعوه ، وعلم أن ذلك الأسد لا يسامح عنده أحد ، وأنه لا يراعى فى الحق أميرا ولا كبيرا ولا صغيرا ، فإنه مع الحق وبالحق قائم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فجمع مباشرة ديوانه ، وأكد ما قاله لهم بأيمانه لئن شكنا منهم أحد ، أو بلغه عن أحد من حاشيته ظلم أو نكد ليذيقنه أشد العذاب ، ولينزلن به أنكى عقاب ، وقال ما برز هذا الأمر العزيز الغالى ، ببناء هذا المقعد العام العالى ، إلا لأجلى ولأجل أمثالى فما وسعهم إلا طلب الخصوم ، واسترضاء العادل والمظلوم .

---

(١) نور الدين الشهيد ؛ ابن عماد الدين زكى ، حكم الشام ومصر وحارب الصليبيين وانتزع منهم إمارتى الرها وبناتياس عام ١١٦٤م ، وشيد العديد من الحصون والمساجد . توفى سنة (٥٦٩هـ) بدمشق سير أعلام النبلاء (٥١٥٧) .

(٢) أسد الدين شيركوه ؛ هو عم صلاح الدين الأيوبي ، خدم نور الدين زكى وكان وزيراً للعاضد الفاطمى ؛ آخر خلفاء الدولة العبيدية . وحارب الصليبيين وحقق انتصاراً عليهم فى موقعة تل بسطة توفى (٥٦٤هـ) سير أعلام النبلاء (٥١٨٦) .

[٨٩] وروى : أن أحد الصدور غضبه بعض عمال المنصور (١) ، وأخذ منه كفرا من الكفور ، فتوجه إلى الخليفة وضرب له أمثالا طريفة ، وقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأقام به شعائر الدين ، ونصر به المظلومين على الظالمين ، أذكر ظلامتى أولا ، أم أضرب أمام حاجتى مثلا . فقال : دع الجدل واضرب المثل .

فقال : ألهمك الله العدل وأقام بك قواعد الفضل ، إن الطفل إذا ناباه ما يكرهه ، أو قرعه خطب يجبهه ، فر إلى أمه وأجهش إليها من همه ، فأوى إلى حضنها واندس تحت بطنها ، لأنه لا يعرف سواها فيستكشف بها عن نفسه ما دهاها ، ولا يظن أن غيرها يدفع عن نفسه ضيرها ، فإذا عرف أباه بث إليه شكواه ، واستدفع به ما عراه ، لأنه قد وقر فى وهمه أن أباه أقوى من أمه ، وأن غيره من الناس لا يقدر على دفع الباس ، فيلجأ إليه فيترامى فى دفع شدائده عليه ، ولا يقبل عذره إن ترك نصره أو قصر فى مبتغاه ، أو تهاون فى متمناه ، ولهذا قال بدرُ الحى : إن النساء والصبيان يظنون أن الرجل يقدر على كل شيء ، فإذا اشتد واستوى وأصابه من أحد جوى ، تقدم إلى الوالى ؛ لأن مقامه على وهو أقوى من أبيه ، فيستكشف به ما وقع فيه ، فإذا صار رجلا وأصابه من أحد نكد وبلا ، استجد بنائب السلطان فوجده له أحسن معوان ، فأشكاه ورفع بلواه ، وكفاه إذ دعاه من عداه ما دهاه ، ورعاه عما عراه ، فإنه أقوى من الوالى ، وأقدر على دفع الظلامة من كل منهمك غالى ، وهو السلطان الحاضر والعامل والناظر على البادى والحاضر ، فإذا ظلمه الوالى والعامل ونقصه حقه ذو الحكم الكامل ، تعلق بأذيال عدل السلطان ، واستكشف بمراحم نصرته ما دهاه من عدوان ، إذ قد تحقق ورأى

(١) المنصور ؛ هو الخليفة المنصور أبو جعفر عبد الله المنصور ثانى خلفاء العباسيين ، بنى مدينة بغداد ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمته . ومات سنة (١٥٨هـ) سير أعلام النبلاء (١٠٢٥) .

وصدق أنه أقوى من الكل و إلى مرسومه مرجع الجبل والقل ، ولا يد فوق يده ، وأنه قد انتهى حديث رفعتة لعلو سنده ، وبلغ فى التسلط ونفوذ الأمر إلى أقصى أمده ، إذ هو ظل الله فى أرضه ، وخليفته فى إقامة نفعه وإحياء فرضه ، وقابض أزمة المخلوقين ، ومنصف المظلومين من الظالمين .

فإذا لم ينصفه السلطان مع القدرة الكاملة والإمكان ، توجه بشكواه إلى سلطان السلاطين ، وطلب رفع ظلامته من رب العالمين ، لعلمه أنه الحكم الذى لا يجور ، والحكيم الذى بيده مقاليد الأمور ، والحاكم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه أقوى من السلطان ، ولا يحتاج فى الشكوى إلى بينة ولا بيان ، ولا إلى دليل ولا برهان .

وقد نزلت بى حادثة للقلب كارثة ، وبالفكر عابثة ، وللسر عائثة ، وهى أن العامل الفلانى ظلمنى وأخذ مكانى ، فأنا أشكوه إليك وقد تراميت عليك ، وعرضت قصتى بين يديك ، لأنك نعم السند وليس فوقك أحد ، ولا فى الحكام إلا من هو لك بمنزلة الغلام ، وما بعدك إلا الله مولى لا يخيب من رجاء ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، فإن وعيت قصتى وكشفت غصتى و إلا رفعتها إلى الله ، وقطعت النظر عما سواه ، وهذا أوان الموسم وإعمال المنسم<sup>(١)</sup> ، وأنا متوجه إلى حرمه و مترام على باب إحسانه وكرمه .

فلما وعى المنصور خطابه أرسل من سحاب جفنه عبابه<sup>(٢)</sup> ، وقال : حبا وكرامة يا ذا الزعامة ، بل أنصفك وبالفضل أسعفك ، وأضعف كرامتك وأكشف ظلامتك ، وأوصلك حقك وأعطيك مستحقك ، وأمر فكتب إلى واليه يضع من معاليه ، ويأمره برد أراضيه ، وطلب مراضيه ، والتحلل من ظلم أياديه ، وإكرام محله وناديه .

(١) المنسم : هو التوجه إلى وجهة معينة أى يريد التوجه إلى بيت الله الحرام أثناء موسم الحج .

(٢) العباب : السيل . أى دمع كثير .

[٩٠] وروى : أن موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، فى بعض مناجاته وسؤاله حاجاته سأل الله من فضله أن يريه نكتة من عدله ، فأمره أن يتوجه إلى مكان ويختفى فيه عن العيان ، فامتثل لما به أمر واختفى فى ذلك المكان ، على شط نهر فما كان بأسرع من قدوم إنسان إلى ذلك المكان ، فبمجرد ما وصل إليه نزع من ملبوسه ما عليه ، وكان معه كيس فيه مال نفيس ، فأودعه ثيابه ورام فى الماء انسيابه ، فدخل فى ذلك النهر وغلغل فيه إلى أن غاب عن النظر .

فأقبل فارس فوجد ثيابا بلا حارس ، فنزل عن الدابة وقتش ثيابه ، وأخذ كيس الذهب وركب فرسه وذهب ، وأسرع فى الذهاب إلى أن زال شخصه وغاب ، ثم أقبل شخص ذو شجب وعلى ظهره حزمة حطب ، فانتهى إلى الماء وقد برح به الظما وأمضه التعب ، وأخذ منه النصب ، فطرح عن ظهره الحطب ، وقصد الراحة وقد ظهر الذى كان فى السباحة ، فوجد عند ثيابه شخصا من أترابه ، فاستأنس به وتأوه لمكتبه وما يقاسيه من نصبه ، ثم اشتمل ملبوسه وتفقد كيسه ، فما وجده ، فعرض يده ، فسأل الحطاب عما كان فى الثياب ، وطلب منه الكيس بالتعيس<sup>(١)</sup> ، فقال : ما رأيته ولا حويته ، فقال : هل كان معك أحد ، فقال : لا ، والواحد الأحد ، قال : فهل كان هناك سواك ، قال : لا ، والذى سواك ، قال : يا أخى أنا وضعت الهميان<sup>(٢)</sup> بيدى فى هذا المكان ، ولم يطل على ذلك زمان ، ولا حضر سواك حيوان ، ولا طمئ عذراء هذا الموضع إنس ولا جان ، فلا أشك أنك أخذته ، ولنفسك اقتلذته .

فأقسم بعالم الخفيات وكاشف البليات ، المطلع على الضمائر والنيات ،

(١) التعيس : الكلح والغضب .

(٢) الهميان : كلمة فارسية وهى كيس تجعل فيه النفقة ويشد على الوسط .

أنه ما رأى له هميانا ، ولا يعرف لذلك مكانا ، فقال : لو شهد لك الكون  
والمكان ونطق ببراءتك جوامد الزمان ، وزكاهم الكرام الكاتبون ، لما شككت  
أنهم كاذبون ؛ لأن إنكار المحسوس مكابرة ، والمثابرة على الباطل للحق  
مدابرة ، ولكن خذ لك منه يا فقير الثلث والثلث كثير ، واردد على الثلثين وإن  
أبيت فاجعله بيني وبينك نصفين ، فما زاد ذلك على اليمين وما شك هذا أنه  
يمين . فقال : اردد على مالى ، وإلا قتلتك فلا لك ولا لى ، فقال : ما رأيت  
مالك فافعل ما بدا لك .

فشرع فى تفتيشه وبالغ فى فحصه وتبشيشه ، فلم يهتد إلى شىء سوى  
الضلال والغى ، فأخذ الحنق واشتد به الأرق ، وثارت نفسه الأبية واتقدت  
ثورته الغضبية ، فضربه بمحدد فقتله ، وجد له بالإهلاك فجذله ، ثم تركه  
وذهب ولم يحظ من الذهب بغير اللهب .

كل هذه الأحوال وموسى عليه السلام يشاهد ما فيها من أفعال وأقوال ،  
ثم ناجى فقال : يا ذا الجلال أنت عالم بحقائق الأمور ، وسواء عندك البطون  
والظهور ، سألت فضلك أن تربنى عدلك ، فأرپتلى هذا المغرم ، وأنت أعلى  
وأعلم فى ظاهر ما أمرتلى وبخرامته غمرتلى ، من الشريعة المطهرة ونص  
التوراة المحررة ، أن هذا الحكم جور وظلم ، فأطلعنى على الحقيقة ويبين لى  
سلوك هذه الطريقة .

فقال الله تعالى وجل جلالا : يا موسى المقتول قتل أبا القاتل ، والقاتل  
سرق الكيس من أبى الفارس الخاتل . ففى الحقيقة : الفارس النبیه وصل إلى  
ماله المخلف عن أبيه ، والقاتل إنما استوفى قوده<sup>(١)</sup> ممن قتل والده ، وهذه  
الأمر إنما تتضح يوم النشور يوم تبلى السرائر وتكشف الضمائر ، وينادى  
يوم التتاد لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد .

---

(١) القود : القصاص .

ونظير هذه القصة ما ذكره الله تعالى وقصه ، فى روض كلامه النضر عن موسى والخضر ، عليهما السلام والتحية والإكرام ، إذ ركب السفينة وخرق خرقة مؤديا إلى الغرق ، وقتل النفس الزاكية ، وأقام بغير أجر أركان الجدار الواهية ، وبعض ذلك مخالف لظاهر الشريعة تنفر عنه النفس السليمة والطبيعة ، ولكنه موافق للحكمة الإلهية ومقتضيات العقل الحقية ، الذى لا يطلع عليه إلا عالم الأسرار الخفية ، ولهذا قال جل واحدا واحدا وتعالى فردا صمدا : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. ثم استثنى من هذا المقول إلا من ارتضى من رسول ، وإنما الشريعة الزاهرة وردت بما تقتضى من الحكم الظاهرة ، فتعبدنا الله فى الشرائع بظاهر ما يثبت فى الوقائع .

قيل : من أيقن بحقية أربعة كان من ضيق أربعة فى سعة ، وأمن ودعة : من أيقن أن الصانع الضار النافع لم يخطئ ولم يغلط ؛ أمن من العيب والشطط .

ومن أيقن أن الخلاق ، ومقسم الأرزاق لم يحف فى خلقه ، ولم يمل فى رزقه ؛ أمن الحسد واستراح من النكد .

ومن أيقن بوقوع المقدور ، وأنه لا ينجيه منه محذور ؛ أمن الغم ولم يتسلط عليه الهم ، كما قيل :

مَا قَدْ قُضِيَ يَا نَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ      وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يَقْدَرُ

وقيل : ومن عرف أصله أمن من الكبر نصله .

[٩١] وروى : أنه كتب فى قضية إلى أعدل خلفاء بنى أمية<sup>(١)</sup> ، من

(١) عمر بن عبد العزيز ؛ ابن مروان ، خامس الخلفاء الراشدين ، وهو للخليفة المعادل حفيد للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، كان زاهداً وعالماً فقيهاً عبداً ورعاً شاع بين الناس العدل والأمان . وكان لين سمح الخلق . مات سنة (١٠١هـ) سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

عامله بحمص<sup>(١)</sup> ، أنه هدم الدمص<sup>(٢)</sup> وعدم النمص<sup>(٣)</sup> ، وأن ربّضها رابض<sup>(٤)</sup> ، ومرعى رياضها بارض<sup>(٥)</sup> ، وإنها محتاجة إلى عمارة وزراعة وحراسة ومناعة ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز هذا الجواب المفيد الوجيز ، وهو : حصنها بالعدل ، ونق طرقها من الحدل<sup>(٦)</sup> ، يثبت البنا وينبت الكلا والسلام .

**وقيل :** أمير بلا عدل كغيم بلا مطر ، وعالم بلا ورع كشجر بلا ثمر ، وشاب بلا توبة كمشكاة بلا مصباح ، وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح ، وفقير بلا أدب كطابخ بلا حطب ، وامرأة بلا حياء كطعام بلا ملح ، وقاض جانر كملح على جرح .

**وقيل :** العالم بستان سياجه الشريعة والشريعة سياج يخدمها المنك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلها المال ، والمال رزق تجمععه الرعية ، والرعية أحرار يستعبدوها العدل ، والعدل سلك به نظام العالم .  
وليعلم أن الملة الأحمدية والشريعة المحمدية هي أعدل الملل وأقوم انحل .

**مثلا النصارى :** لا يتحامون الحائض أيام أقرانها<sup>(٧)</sup> ، ولا فرق بين الحائض وغيرها من نسائها .

---

(١) حمص : مدينة سورية بين دمشق وحلب ، وهي بلد مشهور قديمة . بها قلعة حصينة . معجم البلدان (٣٩١٤)

(٢) الدمص : هو قلة شعر الرأس . أى أنه قد عم الجذب والقحط .

(٣) النمص : هو ما تأكله الماشية . أى عدم الزرع والمراد : أنه حل البلاء بالبلدة .

(٤) الربض : يقال ربضت الإبل أى بركت عجزاً عن الحركة .

(٥) البارض : هو أول ما تخرج الأرض من نبت .

(٦) الحدل : الظلم .

(٧) أى أيام حيضها .

واليهود : يجتنبونها فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقربونها رأساً ،  
ويعدونها رجساً وركماً<sup>(١)</sup> .

فسلكت الشريعة المحمدية في ذلك أعدل الطرق وأفضل المسالك ،  
فتعاشر كالأطهار ، وحرّم قربان ما تحت الإزار<sup>(٢)</sup> .

وفى بعض الملال على الذى قتل القود والقصاص ، وليس فى الدية  
خلاص وفى بعض الدية لا غير ، وما للقصاص فيها سير . ودين الإسلام  
المرفوع كل فيه مشروع ، والعدل فى الاعتقاد يا ملك البلاد ، ترك التخليط  
وسلوك ما بين الإفراط والتفريط ، والقول بالتقديس والتنزيه وإثبات الصفات  
من غير تعطيل ولا تشبيه ، واقتباس النور من جعريين وسلوك أمر بين  
أمرين ، والعدول عن المذهب البخوض ، وهو مذهب الجبر والتفويض<sup>(٣)</sup>  
والعدل فى القهيات ، يا معشوق المخدرات والحذريات<sup>(٤)</sup> الذى قام  
عليه النص دليلاً ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَلْيَعْلَمْ بَيْنَ ذَلِكَ  
سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] .

(١) الركن : الرجس .

(٢) فى هذا إشارة إلى حديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب مباشرة الحيض  
(٢٩٩) من طريق عائشة رضى الله عنها بقط كتفت إحداها إذا كتفت حاضياً فلولا  
رسول الله ﷺ أن يباشرها ؛ أمرها أن تقرر فى فور حوضتها ثم يباشرها . قالت :  
وليكم بياك إربه كما كان تنبى ﷺ بملك إربه ؟ والمراد بالمباشرة هنا : إلقاء  
البشرتين لا الجماع .

(٣) مذهب الجبر : نسبة إلى الجبرية وهو مذهب من مذاهب الفتنه ظهر فى العصر  
العباسى . يقول بأن الإنسان مجبور فى كل عمله ولا اختار له . ومذهب التفويض :  
هى فرقة فوضت الأمر إلى الله فى كل شيء لحرراً من الوقوع فى الظن كالفرق  
الأخرى .

(٤) الحذريات : الداهيات . والمراد هنا النساء .

فمن العدل الوضوء المعتاد ثلاث مرات ، ومن نقص أو زاد فقد تعدى وظلم كذا قال النبي المكرم ﷺ ، أى تعدى إن أسرف ، وظلم إن أجحف (١) .

والعدل فى الصلاة ؛ أن تكون على مرتضى الشرع ومقتضاه ، وهى أداؤها فى أفضل الأوقات مؤداة مع الجماعات فى الصف الأول على الوجه الأكمل ، عن يمين الإمام من الافتتاح إلى الاختتام مع تعديل الأركان ، بل التعديل فرض عند بعض الأعيان ، لا نقرأ كَنَقَر الطير ولا تطويلاً يضر بالغير .

والعدل فى الزكاة ؛ أن لا يتيمموا الخبيث منه ينفقون ، ولا يجعلوا لله ما يكرهون ، وليسوا بأخذيه إلا أن يغمضوا فيه ، ولا يكلف جابى المال أن يعطى كرائم الأموال .

والعدل فى الصوم يا سيد القوم ؛ أن لا يتناول فوق الغذاء المعتاد ، ولا يصل بالوصول إلى درجة الإجهاد ، ويعجل النفاطور ويؤخر السحور .

والعدل فى الحج ؛ أن لا يمارى فى الإنفاق ، ولا يضارر الرفاق بالشقاق ، كما يفعله أبناء الزمان ، فإن ذلك خسران والازدياد من ذلك نقصان .

ولقد بلغك يا قمر ما قاله عمر لخدمه يرفا وذا لا يخفى ، كم بلغت نفقتنا مقداراً قال : ثمانية عشر ديناراً يا أمير المؤمنين ، قال : وملك أجحفا بيت مال المسلمين وإياك والأشر (٢) وقاك الله كل شر ، فقد بلغك قيمة راحلة

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً (١٣٥) من طريق عمرو بن شعيب بلفظ ((هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم)) أو ((ظلم وأساء)) .

(٢) الأشر : البطر .

سيد البشر ليدل ذلك على ترك البطر والأشر ، ولا يقصر فى نفقته بحيث يصير كلاً على رفقته ، وكذلك فى كل الإنفاق يا ملك الآفاق قال من عز كلاما وجل مقالا ومقاما ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] .

والعدل فى النكاح يا حبيب الصباح ، لمن عليه يقوى فهو أقرب للثقوى، وهو يا أبا حسان واجب عند التوقان<sup>(١)</sup> ، سنة عند القدرة عليه ، مستحب عند استواء طرفيه ، مكروه عند العجز عنه وهذا بحث قد فرغ منه .  
وقس يا ذا الكرامات على هذا سائر العبادات وجميع العادات ، وعقود المعاملات ، ولا تتعد الحدود فى الحدود فإن ذلك مردود .

وعلى قانون العدل وردت الشريعة المطهرة وجرت قديما شرائع الأنبياء البررة ، وكذلك مقادير الملة المحمدية عليه أفضل صلاة وأزكى تحية، محررة على القواعد العقلية ، وفيها من الحكم الإلهية ما يعجز عن إدراكها القوى العقلية . قال الله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٥] .

وحاصل الأمر يا ذا النهى والأمر : أن العدل هو قوام كل فضيلة ، كما أن الصبر هو أساس كل خصلة جميلة ، وإن أردت بسط هذا البيان ؛ فدونك القول والتبيان فى تفسير القرآن ، المنزل على أشرف إنسان إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فقد أشبع التقرير ، ودقق التحرير فى روضه النضير ، فارس ميدانه الإمام الخطير فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير<sup>(٢)</sup> .

(١) التوقان : مفرد تاق وهو شدة الشهوة .

(٢) فخر الدين الرازى ؛ الإمام العلامة المفسر صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم ، وهو من أشهر التفسير (مفاتيح الغيب) كان فيلسوفاً متكلماً واسع المعرفة بطوم النقل والعقل ، وله العديد من المؤلفات بالعربية والفارسية مثل (معالم أصول الدين) ، وغيرها . توفى سنة (٥٦٠هـ) سنير أعلام النبلاء (٥٤٥٩) .

والعدل يجرى فى الصفات كما يمشى فى الذوات ، ومرتبته فى العلو أن يكون بين التقصير والخلو ، كالكرم الذى يكون بين الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير . والتواضع الذى بين الضعة والتكبر ، وبين التصعر والتصغر<sup>(١)</sup> : والشجاعة التى بين التهور والخفة ، والجبن الطائش الكفة . والقناعة التى بين الحرص والطمع ، والنذالة والهلع ، وبين العجب والتصلف<sup>(٢)</sup> ، والاحتشام والتعشف . والإخلاص الذى بين الشرك والهوى ، وبين الإعجاب والريا . والعفة التى بين التهافت على المشتبهات والترفع عن تناول المباحات والطيبات . والعزم الذى بين سوء الظن والوهم والوسواس ، وبين إذاعة السر والاستخفاف وعدم المبالاة بالناس . والحلم الذى بين الغضب بلا سبب ، وبين التغاضى عن اللئام عند موجب الانتقام . والشفقة ولين الجانب للأقارب والأجانب ؛ الذى بين القوة والاستكبار ، وبين الرخاوة واللين المستلزم لتضييع حقوق الأهل والجار . وحفظ الحقوق الذى بين التكلف والعقوق ، يراعى فيها الحدود ، ولا يخرج فيها عن الحد المعهود ، فالخروج عنها يسمى عنادا وقساوة ، والتقصير فيها يدعى ركاكة ورخاوة .

مثلا : من يستحق العفو لا يضرب ، ومن يستأهل الضرب لا يقطع ولا ينكب<sup>(٣)</sup> ، ومن استوجب القطع لا يقتل ، ومن وجب عليه حد لا يهمل .

وتجرى أمور الشرع الشريف على ما ورد به الأمر المنيف ، فئاتم أحد أكرم من الله ولا أرحم ، ولا أعلم بأمر مخلوقاته ولا أحكم ، قال السميع البصير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ النَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤] .

(١) التصعر : التكبر والأبهة . والتصغر : الذل والهون .

(٢) التصلف : التملق .

(٣) أى يقتل .

[٩٢] وروى : أن الإمام المسدد جعفر بن محمد ، دخل على الرشيد<sup>(١)</sup> وهو فى أمر شديد ، قد استولى عليه الغضب واستخفه الطيش والصخب ، فقال : يا أمير المؤمنين إن كان غضبك لرب العالمين فلا تغضب له أكثر من غضبه لنفسه ، وقد حد لكل شىء حداً من نعمة وبأسه ، فلا تتعد حدوده ، فإنه قد ملك عبده فتذكر من وقوفهم بين يديك ، واقتدارك عليهم إذا تمثلوا قياماً لديك ، قدومك يوم القيامة عليه ووقوفك خاضعاً منفرداً بين يديه ، ومن انتقامك منهم سؤاله إياك عنهم ، فسكن من غضبه واقتدى بأدبه .

وقال الحكماء للاسكندر<sup>(٢)</sup> : عليك بالاعتدال فى كل الأمور ؛ فإن الزيادة عيب ، والنقصان عجز .

وفى الحديث : «خير الأمور أوسطها»<sup>(٣)</sup> .

ولهذا قيل فى الأقاويل : ينبغى للإنسان الراجح العقل فى الميزان ، أن يحصل من كل علم مقدار ما يحتاج إليه ، ويعول فى مشكلاته عليه . مثلاً من علم الأدب ما ينال به عند أربابه الرتب ، كاللغة والنحو والصرف ، ولو أنه أدنى حرف ، ليقوم بذلك لسانه ، ومن علم المعانى ما يبدع به بيانه ، ومن العروض والقوافى المقدار الوافى والمعيار الكافى ، ومن الطب ما يعرف به

(١) الرشيد ؛ هارون الرشيد ، أشهر خلفاء بنى العباس وهو خامسهم ، تولى بعد اغتيال أخيه الهادى ، وهو ابن للخليفة المهدي ، اشتهر بعلمه وحبه للأدب والعلم ، وازدهرت الحضارة الإسلامية فى عهده ؛ فبلغت أوج مجدها . ومات سنة (١٩٣هـ) سیر أعلام النبلاء (١٤١٤) .

(٢) الإسكندر بن الملك فيليب حكم مقدونيا اليونان قديماً . من أشهر العسكريين الغزاة فى التاريخ ، اجتاحت مملكة الفرس ، ودخل مصر وأسس بها مدينة الإسكندرية ، ومات فى مدينة بابل متأثراً بالحمى . البداية والنهاية (٩٧/٢) .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفا (٣٩١/١) وفيه قال فى المقاصد : رواه ابن السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد لكن بسند فيه مجهول عن على مرفوعاً ، والدليمى بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ الحديث «خير الأعمال أوسطها» . للحديث .

مزاجه ويصلح به علاجه ويقوم به اعوجاجه ، ومن علم التفسير والقرآن ما يقتدر به على بيان كلام الرحمن ، ومن علم السنة والحديث ما يميز به الطيب من الخبيث ، ويضبط به أقسامه وصحته وسقامه ، والأنساب والرجال وما لهم من صفات وأحوال إن لم يكن مفصلا فعلى الإجمال .

ويندرج فيه علم التاريخ العالى الشماريخ ، ومن علم الكلام ما يصحح به دينه ويقيم به اعتقاده ويقينه ، ومن علم الأصول وما اشتمل عليه من معقول ومنقول ، ما يقدر به على استنباط الأحكام ومعرفة أدلة الحلال والحرام ، ومن علم الفروع ما يحكم به أصناف العبادات ، وأنواع العادات ، وطرائق العقود وإقامة الحدود ، ومن علم مكارم الأخلاق ما يصيد به قلوب الرفاق ويكتسب به الذكر الجميل والثناء الجليل . ومن الحرف ما يحصل به القوت الحلال ولا يصير على الناس كلا إذا إملال .

وقد قيل : خالطوا الناس مخالطة إن غيتم حنوا إليكم ، وإن متم بكوا عليكم ، ومن علم الركوب والرمى والسباحة ، والخط ولعب الرمح والسياسة ، وعلم الفرائض والحساب ، وطرائق المبيعات والكتاب ، ما يقدر به على الدخول إليه إذا تكلموا فيه بين يديه ، بحيث يكون له فيه مشاركة وإمام ولا يكون بين الخواص كالعوام .

وكل ما ذكر فسلوكه عدل ، والتلبس به كمال وفضل ، ورأس مال الجميع التقوى ، فإن الإنسان الضعيف بالتقوى يقوى ، قال الله تعالى ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ [الحج : ٣٧] .

وبالجملة : فالعادل العادل ، بل الكامل الفاضل لا يستكف عن نوع من العلوم ، ولا تبرد همته عن اقتباس منطوق ومفهوم ، قال معلم الخير ومحذر الشر<sup>(١)</sup> : تعلموا حتى السحر ، وقال :

---

(١) معلم الخير ومحذر الشر ، أراد الإمام سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه والبيتان فى نهج البلاغة .

عَرَفْتُ الشُّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِن لِتَوْقِنِهِ  
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ يَقَعُ فِيهِ

وكل صافى السريرة وذى بصيرة منيرة ، يتوجه إلى التعلم والاستفادة  
ويجعل مراده مراده ، أى علم كان خصوصا إذا كان من الشرف بمكان . قال  
بعض الوزراء لابنه : يا بنى تعلم العلم والأدب ، ولا تسأم فيهما من الطلب ،  
فلولا العلم والأدب ؛ لكان أبوك فى السوق حمالا وللنوق جمالا ، فبالعلم  
والأدب ؛ ركبنا أعناق الملوك .

وأحوج الناس يا ذا الأفضال إلى اكتساب الفضل والعلم والكمال  
السلاطين والملوك ، ومن تبعهم فى السلوك ، فإنهم بين خلق الله تعالى هم  
المرموقون ، والسابقون بجلائل النعم لا المسبوقون ، ويحفظ بلاده وعباده  
المستوتقون ، وبالسؤال عنهم موثوقون ، فهم المتحملون لأعباء العدل  
المكلفون بالمحاسبة عنه والفضل ، قال من يقول للشئء كن فيكون ﴿قُلْ هَلْ  
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ﴾ [الزمر: ٩] .

فهم أقدر على التحصيل من غيرهم والزمان والمكان تابعان لسيرهم ،  
الخاص والعام يتمنى قريهم ، ويسلك فى التوصل إلى جنابهم دربهم ، ويبذل  
فى ذلك ما وصلت إليه يده ويجعل تحصيل ما يرومونه غاية متمناه ، فيبذل  
جهده فى إيصالهم إليه ويكد قلبه وقالبه فى إطلاعهم عليه ، قال الشاعر :

وَلَمْ أَرَ فِي عيوبِ النَّاسِ نَقْصًا      كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وقال بعض الملوك لأولاده : يا بنى اكتسبوا العلم والفضل ، وادخروا  
الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا .  
وقال بعض الحكماء : العلم ملك ذو أعضاء ؛ رأسه التواضع ودماغه  
المعرفة ، ولسانه الصدق ، وقلبه حسن النية ، ويده الرحمة ، ورجلاه مثابرة

العلماء ، وسلطانة العدل ، ومملكته القناعة ، وسيفه الرضا ، وقوسه المساعلة ، وسهمه المحبة ، وجيوشه مشاورة الأدياء ، وزينته النجدة ، وحكمه الورع ، وكنزه البر ، وماله العمل الصالح ، ووزيره اصطناع المعروف ، ومستقره جودة الرأي ، ومأواه الموادعة ، ورفيقه مودة الأخيار ، وذخيرته اجتناب الذنوب .

والحاصل يا ملك الطير هبا مالك عنان الخير : أن قوام العالم ونظام بنى آدم سيف الملوك والسلاطين ، وقلم العلماء والأساطين ، فمهما حدث من شر محاه سيف الملوك ، ومهما وجد من خير أثبتته قلم علماء الإرشاد والسلوك .

وفى الحقيقة يا شيخ الطريقة : العالم عبارة عن هؤلاء وبصلاحهم تصلح الأشياء ، وبفسادهم والعياذ بالله تفسد الدنيا ، إذ هم لزوال الفساد وطهارة العباد وعمارة البلاد ، بمنزلة الصابون للأوضار<sup>(١)</sup> ، والاستغفار للكوزار ، فإذا فسد هؤلاء فما لفسادهم دواء كما قيل :

الذنبُ صابونُ الاستغفار يغسِلُهُ      كالثوبُ يَنْظَفُ بالصابونِ إنْ وسَخَا  
فما الذى يَغْسِلُ الصابونَ من دَنَسٍ      إذا رأيتَهُ صارَ الذَّنْبُ والوسَخَا

وناهيك يا ملك العقابان ما فسد من الزمان ، وجرى من الدماء من طوفان ، وانمحي من أمهات البلدان عند استيلاء الكافر جنكزخان<sup>(٢)</sup> ، فسأل العقاب عن كيفية هذا المصاب والعقاب ، ومن هو جنكزخان الذى أفسد وخان، وما أصله وفصله وكيف كان قطعه ووصله ، حتى نفذ فى كبد العالم بالفساد نصله .

(١) الأوضار : مفرد وضر أى القذارة والوسخ .

(٢) جنكزخان ؛ أو جاتكيز خان : وهو ملك التتار وسلطانهم الأول ، وهو الذى خرب البلاد وأفنى العباد ، واستولى على الممالك ، وليس للتتار ذكر قبله ، ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره ، وله شجاعة مفرطة ، وعقل وافر ، ودهاء ومكر . وأول مظهره كان سنة (٥٩٩هـ) وهلك سنة (٦٢٤هـ) . سير أعلام النبلاء (٥٦٠٠) .

[٩٣] فقال : هذا رجل من بقايا التتار الساكنين من بلاد الشرق فى قفار ، وهم من بقايا ياجوج ومأجوج ، عن الإسلام منحرفون ، وعن الإيمان عوج ، سموا بالترك لأنهم تركوا عن دخول السد بالخروج ، فكانوا قبل جنكزخان مبددين فى صحارى لا يتفق منهم اثنان ، مسيرة أماكنهم ومدى مساكنهم شرقا بغرب نحو من ثمانية أشهر ، وشمالا بجنوب لا ينقص عن هذا المدى ولا يقصر ، حدها من الشرق حدود ممالك الخطا ، وأقصاها خان بالق وهى مدينة عظمى وورائها شرقا ، يا من يرقى ينتهى الحد بعد السير بالجد ، إلى بلدة عظيمة ولاياتها جسيمة تدعى خيسار<sup>(١)</sup> وأهلها كفار ، وهى مبدأ مملكة الصين يا ذا المجد الرصين ، ومن الشمال نواحي قرقير وسلنكاي ، ومن الجنوب بلاد تدعى تكتيت وتبت<sup>(٢)</sup> ، وتبت هذه يا ذا النسك هى التى يتولد من غزالها المسك ، ومن الغرب وهى جهة قبلة تلك البلاد إذا صلى المسلمون منهم والعباد ، حدود بلاد أو يغور ، وما وراء تلك الكفور من بلاد تركستان<sup>(٣)</sup> يا ذا الإحسان ، ويسير المجد منها إذا انفصل عنها كذا وكذا شهر حتى يصل من جهة غربها إلى ما وراء النهر .

ثم إن هؤلاء التتار كانوا فى تلك القفار بين هذه الحدود الأربعة فى مضيعة وأى مضيعة ، يتوالدون فى ذلك البر ، ويتهاجون فى ذلك السهل والوعر ، كالحيوانات السائبة فى البر والبحر ، لا حاكم يردعهم ، ولا دين اعتقاد يجمعهم ، وهم فيما بينهم قبائل وشعوب ، وأصناف وضروب ، وخلائق وأمم لا يعرفون الإسلام والسلم ؛ بل كل أمة تلعن أختها ، وتتهب

- 
- (١) خيسار : مدينة من مدن الثغور التى بين غزنة وهرارة . معجم البلدان (٤٥١٣) .  
(٢) تبت : بلد بأرض الترك . وهى دولة فى جنوب غرب الصين مشهورة باسم هضبة التبت . معجم البلدان (٢٤٣٠) .  
(٣) تركستان : هو اسم جامع لجميع بلاد الترك وبها جبل زانك وجبل النار . معجم البلدان (٢٤٩٣) .

تختها<sup>(١)</sup> ، وتاكل رختها<sup>(٢)</sup> ، وكل طائفة تعد غارتها وتقصد جارتها ، وكل من قوى على غيره كسره إما قتله وإما أسره ، لم تزل المكافحة بينهم قائمة ، والمناطق بين ثيرانهم وكباشهم دائمة ، وعيون الرشد والاهتداء عنهم نائمة ، وضواري الظلم والاعتداء فى مسابح سوارح أسلامهم<sup>(٣)</sup> سائمة ، يعدون النهب غنيمة ، والفسق والفجور والنميمة أجمل صنعة وأكمل شيمة .

يأكلون الكلاب والفار ، وما وجدوه من صيد القفار ، والميئة والدم والهوام ، لا يعرفون الحلال منها والحرام ، ويلبسون جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها ، كما كان مشركو العرب فى الجاهلية ، قبل إشراق شمس الملة المحمدية ، لا زرع لهم ولا ثمر سوى نوع من الشجر ، يشبه شجر الخلف<sup>(٤)</sup> ، هو ثمرهم فى الشتاء والاصطياف ، اسمه فسوق .

وهم على ما هم عليه من الفسوق ، يعبدون الأوثان والأصنام ، ويسجدون للشمس إذا بزغت من الظلام ، ويعظمون النجوم ويعبدونها ، وتخالطهم الجن ويرصدونها وفيهم كهنة يعتقدونها ، وسحرة ومكرة وسواجع وزجرة يجبى خراجهم إلى ملك الخطا ، وهم على أشد كفر وخطا قد تركب الكفر فى أحشائهم ، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُؤَخُّونَ إِلَىٰ أُولِيَآءِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

وأعلى من فيهم من أكابريهم وذويهم علامة رياسته وانفراده بسياسته ، وأنهم فيهم ذو بأس شديد ، ورأى سديد ومال مديد ، كون ركابه من حديد ، وباقى أعيانهم وذوى مكانتهم وإمكانهم إن كانوا ذوى جد ، فركابهم قضيب ملوى أوقد ، وعندهم أقخر ملبوس جلود الكلاب والنموس ، والذئاب والتيوس

(١) التخت : كلمة فارسية تعنى عاصمة المملكة .

(٢) الرخت : أى الرخاء والنعم .

(٣) أى الأرض تثبت السلم وهو نوع من النبات .

(٤) الخلف : صنف من شجر الصفصاف .

وقس على هذا جميع تجملاتهم ، ومفاخر آياتهم فهم فى قديم الزمان وبعد  
الحدثان من حين بلغ ذو القرنين بين السدين ، وساوى على يأجوج ومأجوج  
بين الصدفين إلى آخر وقت ، كانوا فى قلة ومقت ، وضيق حال وسوء بال ،  
لا دنيا رحية ولا آخرة رضية ، حتى نبغ منهم هذا اللعين الطاغية تموجين ،  
الذى تسمى بجنكيزخان ، وساعده قضاء الديان ، فأمدّه الزمان وأعطاه  
المكان، لأمر يريده الرحمن وقضاء قدره على عبيده فى سالف الأزمان ،  
فطم العالم بالفساد فأهلك العباد والبلاد ، وأخلى الديار والدار، وعم غالب بلاد  
الإسلام بالشنار والبيوار ، فصلى الله على سيد بنى عدنان بل أشرف جنس  
الإنسان ، الذى قال : «يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب  
أصحابه مخسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج  
عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها»<sup>(١)</sup> .

فاتبعه منهم النساء والرجال أتباع اليهود والكفرة والمسيح الدجال ، أمم  
لا يحصرها حساب ولا يحصيها ديوان ولا كتاب ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ إِلَّا  
هُوَ﴾ [المنذر: ٣١] فأرشد إلى طريق الضلال بعدما تاهوا ، وصار كل من  
أولئك الطغاة الكفرة الهجرة ، الأوغاد اللثام ، وكل كلاب خادم كلاب الصعود  
يجرى سيفه الكال المكدود<sup>(٢)</sup> ، من أشرف الملوك وملوك الأشراف، وفى  
أعضاء الأسود ، وفى رقاب النمرور والفهود ، وكل ماضغ شحيح وقيصوم  
وعلج<sup>(٣)</sup> من أولئك العلوج<sup>(٤)</sup> وعلجوم<sup>(٥)</sup> ، يتفككه فى أنواع المستلذات من  
المشروب والمطعوم ، وكل صعلوك معلوك ، من تركى متروك أو خدم

(١) الحديث : لم نعرث عليه فيما بين أيدينا من كتب مطبوعة .

(٢) الكال المكدود : المتعب من كثرة الضرب والطعن .

(٣) علج : الحمار الوحشى السمين القوى .

(٤) العلوج : أى العير .

(٥) العَلْجُوم : الجمع علاجيم وهو البستان الكثير النخل .

مملوك ، يتحكم فى رقاب أكابر الملوك ، ويستعبدون أحرار أولادهم ،  
ويستفرون زوجاتهم وبناتهم فى بلادهم :

على رأس عبد تاج عز يزينه      وفى رجل حر قيد ذل يشينه

ومن لا يعرف البطائن المروية<sup>(١)</sup> ولم يسمع بالرقاع الكرياسية<sup>(٢)</sup> ،  
يستوى الاستبرق والديباج ، ويتقلب على تخوت الصندل والساج<sup>(٣)</sup> ،  
ويترقى إلى سرر الأبنوس والعاج ، ويعامل التجار والمضاربين فى البر  
والبحار ، بألوف الألوفا من الدرهم والدينار ، فيجيبى إليهم نفائس المضارب  
من المشارق والمغرب ، ومكامن المعادن وذخائر الخزائن ، كل ذلك  
بواسطة ذلك الطاغية واستيلاء الفئة الباغية .

وكان من أمر هذا المصاب الذى بدل حلاوة العيش بمرار المصاب ،  
وخلد فى الدهر قواعد البلايا والأوصاب<sup>(٤)</sup> ، أن الله القاهر فوق عباده الذى  
لا يسئل عما يفعل من مراده ، بل له المراد فى عباده وبلاؤه المتصرف فى  
ملكه تصرف المالك فى ملكه ، لما أراد ابتذال الصون وعموم الفساد فى عالم  
الكون ، واستئصال غالب أهل الأرض وإذاعة بعض عباده بأس بعض ،  
وإظهار آثار غضبه على صفحات الشهود ، وإبراز أسرار قهره على وجنات  
الوجود ، ولحن سطور صدور علماء العالم على روح الورود ، بلسمان نار  
السخط ذات الوقود ، ونقص أرض العلم من أطرافها ، وإخلاء ربوع  
المحاسن من ألافها ؛ أينع هذا التماسح من أفواج أمواج هذه البحار ، وتبع  
هذا التتين المبين من أوعار تلك القفار وأغوار أوغادها تيك القفار ، فكذب

(١) البطائن المروية : خفايا الأمور وأسرارها .

(٢) الرقاق الكرياسية : كلمة فارسية تعنى أثواب بيضاء .

(٣) الساج : نوع من أنواع الشجر .

(٤) الأوصاب ، مفرد ما وصب : وهو المرض .

ممتازاً على أفرانه بوفور عقله وحسن بيانه ، ذا فكر مصيب ورأى صائب ، وحزم مجيب وعزم ثاقب ، وهمة تبارى الأفلاك ، وثبات يجارى السماك كسر بصدماته الأكاسرة ، وقص بسطواته القياصرة ، وقرع بعزماته على قمم الفراغنة والجبابرة ، وقهر بحملاته قهارمة خواقين القياصرة<sup>(١)</sup> ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أعجيباً عجيباً<sup>(٢)</sup> لا يحسب ولا ينسب ، لا طالع الأخبار ، ولا اقتفى فى سياسة الممالك الآثار ؛ بل فرع ما فرعه من القواعد فى صحيفة تفكيره ، واخترع ما ابتدعه من تدبير الملك من مطالعة هواجس ضميره ، فأسس قواعد لو أدركه اسكندر ودارا<sup>(٣)</sup> لما وسعهما إلا اقتفاء أثره ، وشيد مباني لو بلغت نمرود وشدادا لبنيا قصور قصورهما على أركان خبره وخبره .

ورتب تجهيز السرايا والجنود ، وربط عقود الجيوش والبنود بطرائق يعجز عنها مهندس الحكمة ، ويتقاعد عن حل رموزها معزم الفطنة ، وغاية ما يتعاناها ويستعمله ويتعاطاه جيوش الأتراك فى بسيط الأرض ، من إيرام طرائق عساكرهم والنقض ، إنما هو من قوانين ما رتبته وأفانين ما هذبه وركبه ، وله فى ترتيب حراب الحروب وما فى فن الضرب والضراب من ضروب ، وطرائق الاصطياد مخترعات دقائق لم يسبق إليها من لدن كيخسرو وكيقباد<sup>(٤)</sup> ، أحكم بها الموافق ونصر المصادق ، وكبت المعادى ، وكسر الأعدى ، واتسع له فى التضييق على الإسلام والمسلمين المجال ،

(١) القهارمة ، مفرداً قهرمان : وزير الملك . وخواقين ، مفرداً خاقان : الملك .

(٢) عجيباً : معيباً ومشيناً .

(٣) دارا ؛ من كبار ملوك الهند وكان ولى عهد الإمبراطور شاه جيهان . مات سنة (١٦٥٩م) .

(٤) كيخسرو ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة ، تقامت عليه محنة التتار فقتلوه ونهبوا بلاده عام (١٢٨٣م) . كيقباد ؛ ملك من ملوك الروم السلاجقة . كان بينه وبين التتار حروب كثيرة وتوفى أثنائها عام (١٢٣٦م) .

فكل من عامله بالمجاملة ، وتلقاه بالعبودية وحسن المعاملة أبقى على نفسه وأهله وماله ، وحصنهم من أليم خيله ورجاله ، ومن قابله بالمقاتلة وقاتله بالمقابلة ، وتلقى صف قتاله سورة المجادلة ، محاسن كونه من لوح الوجود ، وأوطأ سنايك خيله منه الجباه والخدود ، فخرّب ديارهم ومسح آثارهم مع شركه وإسلامهم ، وتبدد عساكره ونظامهم ، ومع أن أكثر الملوك والسلطين وحكام الممالك الإسلامية من الأمراء والأساطين ؛ لعدم اكتراثهم بالأتراك والتتر وشدة ما هم فيه من النخوة والبطر ، ولاعتمادهم على حصونهم الحصينة ، وتعويلهم على معانهم المكيّنة ولكثرة العدد والعدد ، ومساعدة المدد والمدد ، ولوفور العمائر ببلادهم وخراب بلاده ، وبسطة استعدادهم وضيق استعداده ، لم يعاملوه إلا بالمكافحة ، ولا ردوا جواب خطباته إلا باللعن والمكالحة والسب والمقابحة ، ولا قابلوه إلا بالمرامحة والمرأوسة والمناطحة ، فقتلهم وأبادهم واستصفي طارفهم وتلادهم ، وتوطن ديارهم وبلادهم ، وأبادهم عن آخرهم ، وأطفأ قبائل عشائرهم ، فمد لأكابريهم أسمطة<sup>(١)</sup> الرزايا ، ووضع في أفواه أصاغرهم أتديّة المنيا ، وأضافهم في ولائم الدمار وأطافهم على نجائب<sup>(٢)</sup> الانكسار ، في ملابس البوار ، فاستأصل شأفتهم بالكلية وحكم فيهم صوائل المنية ، فلم يبق من مائة ألف إنسان مثلاً مائة إنسان ، وذلك أيضا إما على سبيل التغافل أو على سبيل النسيان وسيذكر على سبيل الإجمال ما يدل على تفصيل ما له من أحوال ، وشواهد ما فزعه من أهوال .

واستمر ذلك في ذريته وإن كانوا رجعوا عن ملتبه ، وأصل هذه الأصلة<sup>(٣)</sup> التي أضحت بخلق اللعن أكسى من بصله<sup>(٤)</sup> ، قبيلة من تلك التتار

(١) أسمطة ، مفردا السمط : الخيط والحبل .

(٢) النجائب ، مفردا النجيبة : الناقة .

(٣) أى أصل هذا الجنس من البشر .

(٤) أكسى من بصله : وهذا مثل يضرب لمن يلبس ملابس كثيرة .

الساكنين فى تلك القفار ، تسمى قنات ظلمة عتات ، غير أمناء ولا تقات ، منها آباؤه وأجداده ، وفيها أقاربه وأحفاده ، وإخوته وأولاده ، فنشأ كما ذكر بطلا باسلا وشجاعا كاملا ، سهام أفكاره فى عمره مصيبة ، ورهام<sup>(١)</sup> آرائه فى مكره خصيبة .

ثم اتصل بعد ما أحنى<sup>(٢)</sup> وخان بملك الخطا يسمى باونك خان ، وأظهر من أنواع الفراسة والفروسة والكياسة ما فاق به أناسه ، وفات من العقل قياسه ، فقربه الملك وأدناه ولمهمات اصطفاه ، ولا زال يترقى عنده إلى أن ملك جنده وصار عضده وزنده ، ودستور ممالكه ومسلك مسالكه ، وحاكم أمرائه وناظم أمور وزرائه ، وناظر جمهور كبرائه ، وعين أعواته وعون أعيانه ، وأعز من إخوته وأولاده ، وأبر من حفدته وتلاده وكتفت حواشيه وعظمت غواشيه<sup>(٣)</sup> ، وملأت السهل والوعر فواشيه ومواشيه<sup>(٤)</sup> ، ففقل على الوزراء وصعب على الأمراء إذ مدار الملك صار عليه ، ومرجع الأمير والمأمور إليه ، فحسده أولاد الخان وإخوته وأجناده وأسرتة ، وأعملوا له المكائد ونصبوا له المصائد ، وتعاطوا إفساد صورته وتواطوا على إخمد سيرته .

فصاروا يتناوبون على ذلك فى غيبته ، ويمزقون أديم عرضه عند الخان ، ويشقون ستر عصمته بمخالب البهتان ، ويراقبون للكلام أوقات القبول ، ويوظبون فى السعاية عليه بدلائل المعقول ، حتى أوغروا صدر الملك عليه ، وأخذ يفكر فى كيفية إيصال الإساءة إليه ، ولم يقدر على

(١) الرهام ، مفردا الرهم : الضعف .

(٢) غدر وأفحش .

(٣) دواشيه .

(٤) أزهاره الجميلة المختلفة الألوان .

مواجهته لوفور جماعته وكثرة حاشيته ، فإن أوتاده كانت ثابتة وخراس كالأرزة<sup>(١)</sup> نابتة ، وفروع دوحة عصباته قد أحاطت بالملك من كل جهاته ، حتى قيل : إن ذلك الثقيل كان له من القرابات وذوى الأرحام والعصابات والأولاد والأحفاد ، ما جاوز فى التعداد عشرة آلاف نسمة ، كل له حرمة وكلمة ، فأضمر له السلطان البيات ، لذلك من عسكره أولى الثبات والأثبات الثقات ، ولم يختلف عليه فى ذلك اثنان لأنه كان قد استحکم فيهم منه الشنان<sup>(٢)</sup> ، وعلّموا أن سهم مكرهم نفذ ، وحسام فكرهم فى قطعه فلذ<sup>(٣)</sup> ، ورأوا من الرأى أرسنه أن يراقبوا لحتفه مكمّنه ، فتواعدوا على ليلة معينة يدهمون فيها مأمّنه ، وكان عند الخان صبيان محرمان لا يؤبه إليهما ولا يعول فى الأمور عليهما ، يدعى أحدهما : كلك والآخر : باده ، فانسلا من بين أولئك القادة ، وسلكا طريقا غير العادة ، وأتيا تموجين الطاغية اللعين فى خفية ، ونبها وعيه وأخبراه وبصراه وأنذراه وحذراه ؛ بما تمالاً<sup>(٤)</sup> عليه الملك مع عسكره المنهمك .

وقالا : أيها العفريت قد طبخت لك قدرُ التبييت<sup>(٥)</sup> ، فقتبه من النوم وراقب فى الليلة الفلانية هجوم القوم ، فإنه قد مرج مرج الفتنة ، فامرج وعن وهاد غفلتك اعرج ، إن الملاء يأمرون بك ليقتلوك فاخرج ، وباعاد من السر ما جرى بتخيير المشتري ، وقصا عليه القصص ؛ فخلصا طير حياته من القفص ، وظبى نجاته من القنص ، فشكر لهما فضلهما واستكتمهما قولهما ، ثم تثبت فى أمره وأخفاه عن زیده وعمره ، وجمع تلك الليلة رجله

(١) الأرزة : شجر يشتهر بصلابة خشبه وجودته .

(٢) الشنان : البغض والكراهية .

(٣) قطع ونفذ .

(٤) أى تشاور .

(٥) أى قدر له الأمر ليلاً .

وخيله، ولم يبد تلك الحال لأحد من الرجال ، بل أخلى بيوته ولازم سكوته ، وقصد أحد الجوانب بما معه من راجل وراكب ، وأقام فى كمين ، ينظر أيصدق الواشى أم يمينا<sup>(١)</sup> ، فما مضى هزيع<sup>(٢)</sup> من الليل إلا وقد هبطت الخيل ، فوجدوا البيوت خالية والأطلال خاوية ، فتحقق صدق الناقل وأنه ناصح عاقل ، فعمل مصلحته وأخذ حذره وأسلحته وتقرر وقوع النكد ، فتقدم إمامهم واستعد فقصدوه ، وبالأذى رصدوه ولا زالوا يتبعونه حتى التقوا بمكان يسمى ببالجونة ، وهو عين ماء فى حدود بلاد الخطا فاشتعلت بين الفريقين نار الحرب ، وقصد كل منهم الآخر بالطنم والضرب ، فأعانه الله ونصره ، فكسر الخان وعسكره ، وفر بمن معه من فئة وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وغنم تموجين من الأموال والمواشى والأنتقال ، ونخائر الخزائن ونفائس البحار والمعادن ، ما فات العدو والحصار خارجا عن سعادة النصر ، وهرب الخان وتهدمت منه الأركان ؛ فجمع جنكزخان عسكره ، وضبط أسماء من حضره ومن كان شاهد القتال ومواقف الحرب والجدال ، من النساء والصبيان والرجال ، ومن خادم ومخدوم ، وخاصم ومخصوم ، ومأمور وأمير ، وكبير وصغير ، حتى السائس والجمال ، والطباخ والبهال والطفل الرضيع ، والنذل والوضيع ، ومن شهد تلك الغارة ، أو كان فى تلك الداره ، ولو حاضر للتفرج مع النظارة ، واستبشر بوجودهم وتيمن بورودهم ، فأثبتهم فى الديوان بأسماء آباتهم وجدودهم ، وفرق عليهم ذلك الفىء ولم يرفع إلى خزائنه منه شيء ، بل وزع ذلك المغنم الوافر العظيم المتكاثر على الحاضرين معه من العساكر ، وضبط أسماءهم فى الدفاتر ، وفرق ذلك العرض المريض الطويل على قدر الحقير منهم والجليل ووعدهم بكل جميل .

(١) يكنب .

(٢) جزء من الليل ، وقيل ساعة.

وأما الغلامان اللذان أخبراه ، وعلى ما كان أضمره الخان أظيراه ، وكانا سبب حياته وخلصه من الموت ونجاته ، فإنه جعلهما ترخان فصار لسهم مقاصده كأنهما شرخان<sup>(١)</sup> ، والترخان عبارة عن المعافى المطلق ، يستوفى حقوقه ولا يقوم بما عليه من حق ، لا يأخذ بقصاص إن قتل ، وقس على هذا ما يوجبه القول والعمل ، مقضى المآرب موصول المطالب ، لا يكلف بخدمة ومباشرة ولا بحضور ومعاشرة ، مهما طلب أعطى ويعد مصيبا ولو يخطى ، وأعلى مراتبه فى مراعاة جانبه ؛ أنه يدخل على السلطان من غير استئذان ، وهو نائم مع سراريه ونسائه وجواريه فيذكر ما له من مآرب فتقضى ، ومن شفاعة فتقبل وتمضى ، ويعطى بذلك مناشير وتواقيع وتقارير تبلغ التاسع من أولاده ، ويشمل أحكامها جميع أسباطه وأحفاده .

ولما انتصر وحصل أمنه واستقر ، وتعاضم أمره واشتهر ، وعظم صيته وانتشر ، قرر كل من حضر تلك الواقعة فيما يليق به من منصب ورفعة ، فأقبلت القبائل إليه وانهالت الرؤوس والوجوه عليه ، ورجع الخان واستعد وأعد ما وصلت إليه يده من عدد ، واستعان عليه بالمدد والعدد ، ثم تلاقيا كرتين وتصاولا مرتين ، انكسر الخان فى الأولى ، وقبض عليه بعد الكسرة فى الأخرى فقتله وأباده ، واستملك بلاده ، واستولى على عساكره واستحوذ على ذخائره وعشائره ، وهربت أولاد الخان ، ولجأت إلى أطراف تركستان ، ثم أرسل سلطان الخطا والصين بكلام رصين ، يدل على عقل حصين واسم ذلك السلطان التون خان ، وطلب المهادنة والموافقة ، والمصافاة والمصادقة ، فلم يلتفت إلى كلامه ؛ فضلا عن إعزازه وإكرامه اتكالا على حسبه ، واستنادا إلى نشبه<sup>(٢)</sup> ونسبه ، واعتمادا على سعة ممالكه ،

---

(١) شرخان : مثلان يقال هو شرخى أى مثلى .

(٢) أى أصله .

وكثرة ملوكه ، ومناعة حصونه ، وعمارة بلاده ووفرة مملوكه ، فإن ممالك جنكزخان بالنسبة إلى ولايات الخاقان لاش ، وأقل من لاش ، وعساكره وقبائله ، بالنظر إلى أهل الصين أو شاب<sup>(١)</sup> أوباش ، فرجع قصاد جنكزخان بالخبيبة ، وذكروا ما رأوا لملك الصين من عظمة وهيبة ، فلم يلتفت إليه ، ثم قصد التوجه عليه بعدد كالرمال ومدد كالجبال ، وواقعه فكسره ، وناقفه فحصره<sup>(٢)</sup> ، وقبض عليه وأباده واستصفى ولايته وبلاده وكانت هذه الكسرة والنصرة ، فى سنة إحدى وستمئة من الهجرة .

فاستقل من غير منازع ولا ممانع ولا مدافع ، فلما خلصت له الممالك وانقاد له المملوك والمالك ، أخذ فى ترتيب الأمور وتهذيب الجمهور ، وطير أجنحة مراسيمه إلى أطراف ممالكه وأكناف أقاليمه ، فرجع جميع ما هم عليه من النهب والغارات والتحزبات وطلب الثارات ، فهدم قواعد الظلم والتعدى فى ممالكه ، فلم ير أيمن من ولايته ، ولا آمن من ممالكه وهى ممالك المغل والخطا ، و إلى الصين شرقا وولايات المغل والجناب بلاد الترك ، وإلى حدود أترار ما وراء النهر غربا .

فجرى بعد النهب والإسار فى ممالك المغل والتتار ، والبغى والعدوان العدل والأمان ، والسلامة والاطمئنان وبعد السرقة والخيانة الوفاء والأمانة ، وأمر بوضع البرد<sup>(٣)</sup> والمنارات والعلامم والإشارات ، وعمرت المفاوز والمناهل ، وسكنت الصحارى والمذاهل<sup>(٤)</sup> ، وعرفت طرق المهامة

---

(١) شرنمة قليلة حقيرة .

(٢) أى نلوشه فى القتال .

(٣) البرد ، مفردا للبريد : المكتب الذى يتسلم ويسلم الأشياء المرسله .

(٤) المذاهل ، مفردا المذهل : المكان الذى يُذهل فيه ويخيب عنه رشده .

والمجاهل<sup>(١)</sup> ، وانتلفت تلك الطوائف والأمم وانتشر صيت عدلها فى العرب والعجم ، واخترع كما ذكر أنواع سياسات ، وقرر للمملكة قواعد بنيان وأساسات ، ألف بها بين تلك الطوائف فلم ير بينهم مخالف ، ولا غير موالف على سعة ممالكهم واختلاف مسالكهم ، وتعدد أديانهم وتفاوت كبا أخلاقهم وميزانهم ، فإنهم كانوا ما بين مسلمين ومشركين ومجوس وأرباب ناقوس ويهود ، ومن لا يدين لمعبود ، وصباة وغواه ، وعباد الشمس والنجوم ، ومن يسجد لها أوان الرجوم ، وكل منهم يتعصب لمذهبه ويغض من مذهب صاحبه ، فلم يتعرض لأحد فى دينه ولا وقف له فى طريق اعتقاده ويقينه .

وأما هو فلم يتقيد بدين لا كافر مع الكافرين ، ولا ملحد مع الملحدين ، ولا يتعصب بملة من الملل ، ولا يميل لنحلة من النحل ، بل يعظم علماء كل طائفة ، ويحترم زهاد كل ملة على دينها عاكفة ، وبعد تلك الخصلة قربه<sup>(٢)</sup> حيث يعظم كل دين وحزبه ، وكل من اختار من أولاده ، وأسباطه وأحفاده ، وأمراته ورعيته ، وأجناده دينا من الأديان ، لا يعترض عليه أى دين كان ، فبعضهم كان مسلما حنيفيا وبعض كان يهوديا ، وبعض نصرانيا ، وبعض مجوسيا ، إنى غير ذلك من الإلحاد والزندقة وعدم الاعتقاد ، وحيث لم يتعرضوا إلى دنياه ولا نازعوه ملكه الذى تولد ، لم يشاققهم فى دينهم ولم يوافقهم فى يقينهم .

واخترع هو لنفسه فى الملك قواعد حمل عليها المقارب والمباعد ، ثم لما لم يكن له كتاب ولا خط ، ولا لأولئك الحروف فلم يعرفون به قط ، أمر أذكياة قبيلته وعقلاء مملكته ، أن يضعوا له خطا وقلما يكون لهم علما وعملا ، فوضعوا له قلم المغل ، واشتغلوا به أهم شغل ونسبوه إلى قبيلته ،

(١) المَجَاهِل ، مفردا المجهل : المفازة لا أعلام فيها أو لا يهتدى فيها .

(٢) أى قربه من فعل الخير والعمل الصالح .

ليدلوا به على فضيلته ، فقالوا : قوتاتقو ؛ يعنى قلم قنات ، وهى قبيلة ذلك القنات، فوضعوا مفرداته ورتبوا ثم حملوها وركبوا ، وهى أربعة عشر حرفا ظاهرة بينهم لا تخفى ، وهذه صورة مفرداتها : ..... (١)

فأمر أولاده وأحفاده وجماعته وأجناده ، ومهرة الرجال والأذكىاء والأطفال ، أن يتعلموا هذا الخط وينشروه ، ويتداولوه ويشهروه ، فانتشر بينهم حتى ملأ رأسهم وعينهم ، فرسموا به المراسيم والمناشير ، ورصعوا بجواهره جباه المساطير ، ووضعوا الرسومات الديوانية ، والتوقيعات السلطانية ، وابتدع لهم تواريخ وحساب كل ذلك بهذا الكتاب .

ثم لما تقرر أمره وانتشر فى الآفاق نكره ، مهد قواعد أسسها ، ونصب فى دوحه ملكه أصول خلاف غرسها ، ووضع على ما اقتضاه رأيه التعيس وفكره الخسيس ، طرقا وأفانين ودرج فى أمور الحكومات أساليب وقوانين ، فجعل لكل حكومة حكما ، وفوق لكل حادثة سهما ، وفرع لكل حسنة مثوبة ، ولكل سيئة عقوبة ، وقرر لكل معصية حدا ولكل بنيان مخالفة هدا ، ولكل فرع أصلا ، ولكل سهم من الوقائع نصلا .

وبين كيفية الصيد والحرب ، وسلك فى كل ذلك الطريق والدرب ، وألقى دروس ذلك على أولاده وحفدته وجيوشه ورعيته ، بحيث إتهم حفظوها ورعوها وفى سير سيرهم هرجا ومرجا وعوها .

فمن أحكامها المظلمة وفروعها المعتمة ، صلب السارق وخنق الزانى ، وإن شهد بذلك واحد فلا يحتاج إلى ثانى ، ثم فصل حد السارق بهذيان فارق ، فقال فى السرقة : من جر كاه أو بيت شعر واه ، بوجوب الصلب ، وبقطع اليدان كان بالنقب<sup>(٢)</sup> ، ثم كلا السارقين يؤخذ ما لهما من مال وعين ويسترق ما لهما من أولاد ، وينتقل إلى السلطنة ما لهما من طريف وتلاد .

(١) بياض فى أصل المخطوطة .

(٢) أى بالتحرى والتتقيب .

ومنها حقبة دعوى من سبق سواء كذب أو صدق ، ومنها استبعاد الأحرار ، وتوارث الفلاح والأكار<sup>(١)</sup> ، ومنها توريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج ، وتداولهم إياها فوجا بعد فوج ، فإن تزوجها أحد منهم كان أحق بها ، ولا تخرج عنهم ، وإلا زوجوها بمن شاؤا ، وأخذوا مهرها وبأوا ، ومنها عدم العدة وعدم انحصار الزوجات فى عدة ، ومنها الأخذ بقول الجوارى والصبيان ، وبما يتقوله على الرجال العبيد والنسوان .

ومنها امتثال أمر السلطان على الفور من غير توان ، ومنها لزوم ما لا يلزم من العطايا ، وإيجاب ما يتبرع به الإنسان من التجملات والهدايا ، حتى لو أعطى شخص شخصا من ماله هدية أو شقصة<sup>(٢)</sup> ، فإن ذلك يلزمه وفى كل عام يغرمه ، ومنها الجثو بين يدى الحاكم على الركب وقت التحاكم ، ومنها مطالبة الجار بالجار ، ومعاقبة البريء بجريمة مرتكب الأوزار وذلك لأدنى مناسبة ، من معرفة أو مصاحبة ، فضلا عن أكبر أصحابه ، أو شديد قرابه ، ومنها أن لا يتقدم الوضيع على الشريف ، ولو كان ذا مال عريض وجاه كثيف . ومنها العمل بما يقتضيه العقل والكف عما لا يدركه ولو ورد به النقل . ومنها منع عفو الحاكم وإن عفا المظلوم عن الظالم .

ونحو هذه الخرافات الباطلة والهديات العاطلة ، ومن أمحقها وأوسخها وأخسفها ، أنه لو أخذ أحد أبله عن قواعدهم ذو غفلة ، ومن ثوب أخذهم قملة ، فإن دفعها إلى صاحبها خلص من تبعه عواقبها ، وغرامة مطالبها ، فإن شاء قصعها وإن أراد وضعها ، وربما اختار عودها إلى مكانها فرجعها وإن قتلها أو رماها ، وإلى صاحبها ما أداها ، فإن صاحبها يخاصمه وإلى حاكم التتار يحاكمه ، ويدعى عليه بين يديه بأن هذا الإنسان عمد إلى حيوان

(١) الأكار : الحرّاث .

(٢) النصيب والقطعة من الشيء .

ربيته بين سحرى ونحرى ، وغذيته بدم صدرى وظهرى ، فقتله قصدا  
وأضاعه عمدا ، من غير سبب تقدم إليه ، ولا إيذاء اجترأ به عليه ، فينسبه  
إلى الاجترام ويأخذ ديتها منه بالاغترام .

وقس على هذا اليسير أنواعا من الكثير ، ومن نتن هذه البعرة على  
خرافة البعير ، ومن هذه القواعد أمر الأقارب والأباعد بما يستصوبه العقل ،  
ويستنتج النقل ، من سلوك طريق الفتوة ومعاملة الخلق بالمروة والكرم  
والإحسان ، والمداراة مع كل إنسان ، والكف عن الظلم والغارات ، اللهم إلا  
فى طلب الثارات .

ثم وضع طرق المكاتبات والمراسلات والمشافهات والمخاطبات ، فكان  
فى المكاتبات طريقة رسمه أن لا يزيد على وضع اسمه ، مثل أن يقول فى  
أول الكتاب وبراعة استهلال الخطاب ، عند ابتداء المقال بعد عدة أوصال ،  
جنكز خان كلامى ، ثم يكتب تحته من نصف السطر الثانى إلى فلان ليفعل  
كذا ، ولا يتعلل بأن وإذا ، ثم يذكر مخ المقصود بطريق معهود ، يبين  
العبارات من غير مجازات واستعارات ، ويختم بذكر الزمان واسم المنزل  
والمكان ، وإذا استدعى أحدا إلى الطاعة وملوك السنة أسوة الجماعة ، فإنه  
يتجنب التهويل والتهديد ، ويتحامى عن التشريد والتشديد ، ويرغب بالوعد  
ويترك الوعيد ، ثم يقول : إن سمعتم وأطعتم فزتم وغنمتم ، وإن أبيتم  
وتماديتم فليس أمر ذلك إلينا ولا درك علمه علينا ، يرى فيكم الخالق القديم  
رأيه فإن فى تقديره وتدبيره كفاية ، فهذه القاعدة باقية فى تلك الفئة الباغية  
مستمرة على الدوام ، وإلى هذه الأيام جارية على هذا النمط يكتبون اسم  
الخان والخابان فقط ، وكذلك الأمراء والوزراء والمباشرون والكبراء ،  
يكتبون فى أول الكتاب فلان لا كنية ولا جناب ، وهكذا إلى الأكابر من  
الأداني يذكرون اسم الكبير ووظيفته فلان لا الفلانى .

ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونة وقرر عليها الأمور الديوانية والأحكام السلطانية ، أمر بها فكتبت وبهذا الخط رتبت ورسمت فى طوامير<sup>(١)</sup> ، ولقت فى شفق الحرير ، وزمكت<sup>(٢)</sup> بالذهب ورصعت بالجواهر ، كما فعل مائى<sup>(٣)</sup> النقاش الكافر واضع مذهب المجوس ، ومصوره على صفحات الطروس<sup>(٤)</sup> ، ومبرز المعقول بطريق المحسوس ليكون أقرب إلى تفهيم النفوس ، فى كتابه المسمى (بزند واستا) ثم أمر باحترامها وتوقيرها ، والمحافظة على ضبطها وتحريمها ، والعمل بها والاعتداء بما فيها ، وتعلق أهل ملته بقوادمها وخوافيها ، ثم رفعت إلى خزائنه وهى عندهم أعز من الكبريت الأحمر فى معادنه ، واسمها بالمغلى : التورة ، وتفسيرها : الملة المأثورة ، فإذا جلس منهم سلطان على سرير ، وذلك بما للرؤساء من اتفاق وتديير ، وعادتهم فى ذلك أنهم إذا رفعوا عليهم سلطانا ، وأرادوا أن يبنوا لدار المملكة خاننا ؛ اجتمع الأمراء من الأطراف ، واستدعوا أركان الثغور والأكناف ، واشتوروا فيما بينهم مدة أيام ، واستمروا فى ذلك ما بين نقض وإيرام ، وربما أقاموا فى ذلك الجمع العام حولا جميعا أو ضعفى عام ، ويسمون تلك الجمعية (قورلتاى) ، وهى مستمرة الحكم فى المغل والجفتاى ، وسبب ذلك تدافع الإمرة ، والفرار من تلك السلطنة الحلوة المرة ، كما كان الصحابة الكرام يتدافعون الفتاوى خوف الآثام.

(١) طوامير ، مفردا الطامور : الصحيفة .

(٢) سكت .

(٣) مائى النقاش : مؤسس المذهب المائوى لدى الفرس القعماء ؛ وهو المذهب القائل

بوجود إله النور وآخر للظلام يحكمان العالم . هلك سنة (٢٧٧م) .

(٤) الصحيفة التى محيت ثم كتبت .

فإذا وقع الاتفاق بين الرفاق وأمراء الجند ورؤساء الآفاق على واحد من أولاد الخان ، وأن يكون عليهم الملك والسلطان ، وتصوب الرأي عليه وتسدد وضعوه على لبد أسود<sup>(١)</sup> ، ثم رفعه من الأرض إلى السرير أربعة أنفس كل أمير كبير ، كل حامل بطرف ، رافع في زعمة راية الشرف ، والخان يصيح بلسان فصيح : يا رؤساء ويا أمراء ويا ملوك ويا زعماء ، أنا ما أقدر أن أتسلطن عليكم ولا طاقة لى أن أتحكم لديكم ، ولا قوة لى بهذا الحمل الثقيل ، والدخول تحت هذا الأمر العريض الطويل ، فيقولون : بلى يا مولانا الخان تقدر أن تقوم بحمل أعباء هذا الثمان ، فيتكرر الخطاب ويتعدد الجواب حتى يجلسوه على السرير ، ويبتهج بذلك الكبير والصغير ، والمأمور والأمير ، ثم يأتون بالتوراة الجنكزخانية الملعونة الشيطانية ملبجلة معظمة محترمة مكرمة ، فينهضون إعظاما لها ، ويتبركون بمسهم أذيالها ، فينشرونها ويشهرونها ، ثم ينصتون فيقرؤونها ، ثم يبایعون الخان على إقامتها ، وأن يراعى أحكامها حق رعائتها ، ويبایعهم على امتثال أحكامها ، وإجراء نقضها وإيرامها ، فيجيب كل منهم الأمر على ذلك وأن يقيم شعائرها المملوك والمالك ، ثم يضربون له الجنوك<sup>(٢)</sup> مرار ، ثم يتوجهون إلى الشمس فى وجه النهار ، ويضربون لها الجنوك ويسجد لها من فيهم من ملك ومملوك ، ولا يفعلون هذا الفعل الشنيع إلا فى أيام الربيع .

فإذا تعاقدوا وتبايعوا وتعاهدوا وتتابعوا ، رفعوا تلك الكفريات وأحضروا الآلات الخمريات ، فأدار الخان عليهم الكاسات ، واستعملوا الأقداح والطاسات ، وفتح الخزائن وأظهر المكامن ، ونثر النثار من الدرهم والدينار ، وخلع الخلع والتشارييف ، وأعاد فى دروس النفائس أبحاث

(١) لَبْد : البساط . والقماش .

(٢) الجنوك ، مفردها الجنك : آلة طرب ، وهى كلمة فارسية .

التصريف ، واستمروا على ذلك أياما والإنعامات تدر عليهم خاصا وعماما ، ثم يأذن لهم فيتفرقون ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ، وهذه الطريقة مستعملة وإلى آخر وقت غير مهملة فى جميع ممالك الشرق: من الخطا ، والدشت<sup>(١)</sup> ، والصين<sup>(٢)</sup> ، والمغل ، والجتا ، وفى ولايات الجفتاي ، والروم ، قد اعتادوا غالب هذه القواعد والرسوم فقدموها على القواعد الإسلامية والشرائع الأحمدية المحمدية ، اللهم ألهمنا الصواب ولا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

[٩٤] قيل : وسبب تحركه إلى ممالك الإسلام ، وتوجه عنان سخطه إلى طلب الانتقام ؛ هو أنه لما استقر أمره وانتشر بعد الجور بالعدل ذكره ، وطابت بلاده وأمنت ، وخدمت حركات الظلم وسكنت ، توجه من بلاد ما وراء النهر ففة ، فى سنة ثلاث عشرة وستمائة فيهم ثلاثة أنفار من أعيان التجار ، أحدهم : يدعى أحمد الخجندى ، والآخر : عبد الله ابن الأمير حسن الجندى ، والثالث : أحمد بلجيخ ، ومعهم من أنواع المتاجر ونفائس الأكمشة والذخائر ما يصلح للملوك أولى المفاخر ، فوصلوا إلى بلاده الجارى فيها مياه كفره وعناده ، وانتهوا إلى قوقات<sup>(٣)</sup> والمسيل<sup>(٤)</sup> وهما محل سريره الذليل ، فأكرم نزلهم ورفع محلهم ، وأنزلهم فى قباب بيض ، وأفاض عليهم الكرم العريض ، وكان شعار المسلمين فى تلك البلاد أن ينزلوهم فى قباب بيض من لبد ، وكانوا يقرّبون المسلمين ويحترمونهم دون الناس أجمعين ، ثم إن جنكزخان دعا أحد أولئك الأعيان واستعرض قماشه وسأومه بعد ما قرّبه

(١) الدشت : قرية من قرى أصبهاز . معجم البلدان (٤٨٠٦) .

(٢) الصين : بلاد فى بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشمالها التترك . وسميت بذلك لأن صين بن بغير بن كمال أول من هلها وسكنها . معجم البلدان (٧٧٠٥) .

(٣) القوقات : الأرض الغليظة .

(٤) المسيل : جمع مُسَلّ وأمسلة وهو الجريد الرطب .

وأكرمه ، فطلب منه أضعاف ثمنه وسامه<sup>(١)</sup> ما يقضى بغيبه<sup>(٢)</sup> وغبنه ، فما ورد جوابه ولا اعتبر خطابه .

ثم طلب رفيقيه واستعرض بضائعهما عليه ، ثم ساومهما الثمن ، فقالا:  
يا ملك الزمن إن صلح هذا القماش فخذ منك به بلاش ، فليكن ثمنه رضاك ،  
وهدية في مقابلة ملتقائك ، وتقدمة منا إليك ؛ بل خدمة لخدمنا عليك ،  
فأعجبه هذا الحوار ، وقال : بل أنتم تجار ، إنما جئتم لتربحوا وتكسبوا علينا  
وتتجحوا ، وأنتم ضيوفنا ، فالأولى أن يشملكم معروفنا ولكن أنا أقول قولا  
وأدفع إليكم نولا ، فإن رأيتم فيه فائدة وعاد عليكم منه عابدة قبلتموه ، وإلا  
فالرأى فيما رأيتموه ، ثم ذكر لهما مبلغا أرضاها وبلغ به منتهى مناهما ،  
بحيث ربح درهمها ثلاثة وأربعة ، وتضاعفت لهما مع قرب الملك المنفعة ،  
فقالا رضيينا بما رسمت وأنعمت وقسمت .

فقال : لرفيقيهما الأول إن رضيت بمثل ما رضى به صاحبك فتخول ،  
والإفخذ متاعك وتحول وشأنك وقماشك ، ونحن مع ذلك رياشك ، فقال:  
رضيت بما رضيا به وتلطف في خطابه وجوابه فأمر في الحال وأحضر  
المال ، ووزن الثمن وزاد ومن ، وألبسهم الخلع وأفضل في المصطنع ، وأمر  
ببضائعهم فرفعت في خزائنه ووضعت ، ثم أمر خواص بطائنه ، أن يدخلوا  
هولاء التجار إلى خزائنه .

فلما دخلوا إليها ووقع نظرهم عليها رأوا من نفائس الأموال والذخائر ،  
وأصناف الأقمشة والحرائر ، وأنواع الجواهر الملوكية ، وأجناس الأمتعة  
الكسروية ، وأعلاق ملوك الصين ، ومتحفات الملوك والسلاطين ما أبهت  
نواظرهم ، وأدهش أبصارهم وبصائرهم ، فنزهوا في محاسنها أبصارهم ،  
وأودعوا محاسن مخيلاتها أفكارهم ، ثم أتوا بهم إليه وأدخلوهم عليه .

(١) فاوضه وسامه .

(٢) ظلّمه .

فقال : ماذا رأيتم في الخزان من نفائس البحار والمعادن ، فقالوا : ما لا يصلح إلا في خزانتك ، و لا ينثر على فرق<sup>(١)</sup> ملوك المشارق والمغرب إلا من مكامن معادنك ، فقال : ما بايعناكم فأرغبناكم ، و لا أكرمناكم إذ صحبتناكم بناء على انا عادمون ، و لا أنا بقيمة الأشياء وقدرها جاهلون ، وإنما فعلنا ذلك الإحسان وجبرنا منكم النقصان لعدة معان ، أحدها : أنكم أضيافنا وقد شملكم كرمنا وإنصافنا ، ثانيها : أن فضلنا الفضيل يقتضى إكرام النزول ، ثالثها : إنكم مسلمون والمسلمون عندنا مكرمون ، رابعها : أردنا اشتهار اسمنا وأن تذكر في الأقطار طريقة رسمنا ، خامسها : أنه إذا سمع بمعاملتنا التجار يقصدون بلادنا من الأمصار وسائر الأفاق والأقطار ، فتمر المسالك والدروب ويربح الطالب والمطلوب ، سادسها : وهو أعلاها وأحسنها وأقواها أنكم أملتومونا وافدين وأنا لا نخيب رجاء القاصدين .

ثم سرحهم شاكرين ولما سمعوا ورأوا ذاكرين ، ثم اقتضت الآراء فأمر الأمراء وأكابر بلاده ورؤساء أجناده ، أن يجهز كل منهم إلى الجهات الغربية وللولايات الاسلامية من جهته أحدا من المسلمين ، ببضائع من أمتعة الخطا والصين في صفة التجار ليتعاملوا في هذه الديار ، وتفتح المسالك على الصالك ونقل إليهم بضائع هذه الممالك ، وتكثر المعاملات وتتجدد الممالك وللولايات ؛ فامتثلوا مراسيمه وعدوها غنيمة ، ويجهز كل منهم من جهته من وفق بأمانته واعتمد على كفايته ، وأعطاه من النقود والأجناس ما يصير به من رؤساء الناس ، واجتمعوا قافلة وركبوا السابلة<sup>(٢)</sup> نحو أربعمئة وخمسين نفرا كلهم مسلمون كُبراً ، وكتب لهم مراسيم وجائزات بإكرام نزلهم في الدروب والمجازات ، ومعاملتهم بالكرامات ، وأن تهياً لهم ولدوابهم الإقامات ، ذهابا وإيابا حضورا وغيابا .

(١) الطائفة من الناس .

(٢) السابلة : الطريق المسلوكة . يقال : سبيل سابلة ، أى طريق مسلوكة .

ثم أرسل معهم إلى السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد بن أنوشتكين ، وأنوشتكين هذا هو أتابك الملوك السلجوقية والسلطان قطب الدين هو الفائق من تلك الذرية ، رسالة عاطرة تستميل خاطره ، وتسيل من سحائب كرمه ومواطره ، وحسن الجوار ومراعاة جانب الجار ، وسلوك ما تنتظم به الأمور وتطمئن به الصدور ؛ ويحصل به الأمن للصادر والوارد ، والرفاهية للقائم والقاعد ، وتتعدّد به أسباب المحبة من الطرفين ، وأطناب المودة بين الجانبين ، وفتح باب المراسلات وكشف حجاب المعاملات ، وإن كانت الأديان مختلفة فلتكن القلوب مؤتلفة ، وشمول نظر الصدقات السلطانية وعواطف مراحمها الملوكية على القصاد الوافدين على أبواب مكارمها ، المستمطرين سحائب صدقاتها وديمها ، بحيث تسمى مطالبهم وتهنى مآربهم أو كما قال وصدر منه السؤال .

[٩٥] هذا وأما أخبار السلطان قطب الدين<sup>(١)</sup> : فإنه كان من أكبر الملوك والسلاطين ، تملك عراقي العرب والعجم ، وما في ممالك خراسان من أمم واستولى على غالب الممالك بالقهر ، وإلى أقصى ولايات ما وراء النهر ، وجعل جرجانية خوارزم<sup>(٢)</sup> مأواه ، وتلقب لذلك خوارزمشاه ، ورفع ما بين مملكه وبين ممالك جنكزخان من التتار المسلمين بقراچفتای وعباد الأوثان ، واسترقهم قهرا وقسرا واستصحبهم جبّرا وكسرا ، واستولد من تلك

(١) علاء الدين خوارزم شاه ، من ولد طاهر بن الحسين ، وصاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والرى وغيرهما من القديم المتسع ، وهو الذى قطع دولة السلجقة ، كان عادلاً حسن السيرة والمعاشرة ، فقيهاً على مذهب أبى حنيفة ، توفى سنة (٥٩٦هـ) .  
البداية والنهاية (٢٥/٧) .

(٢) الجرجانية : اسم لقصبة إقليم خوارزم وهى مدينة عظيمة على شاطئ جيحون وأهل خوارزم يسمونها بلساتهم كركانج فعربت إلى الجرجانية . خربها التتار وقتلوا جميع من كان بها . معجم البلدان (٣٠٢٥) .

الطائفة المعتدين ولده السلطان جلال الدين<sup>(١)</sup> ، فبواسطة أنه صار له منهم ولد ، صاروا أقرب عساكره إليه وعليهم المعتمد ، فكانوا شعوبا وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مقاتل ، ومنهم أيضا كانت أمه وأخواله ، وخيله ورجاله ، إلى أن خانوه وبذلوه ، وما صانوه واستدفع بهم طارق البلاء فكانوه<sup>(٢)</sup> .

### غريبة نادرة عجيبة :

كان هولاء التتار متاخمين بلاد أنزار<sup>(٣)</sup> ، وهي حد ممالك السلطان وهي سد عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان ، فغزاهم السلطان وأبادهم واستعبد كما ذكر أجنادهم ، فارتفع السد من البين ، وانهدم الفاصل بين الجانبين ، واتصلت المملكتان كالمحيين ؛ أعنى مملكة السلطان ومملكة جنكزخان ، فسرت السرائر ، وابتهجت الضمائر ، ودقت في ممالك السلطان قلب الدين البشائر ، وزينت الولايات بأنواع الذخائر ، وكان في نيسابور من أكبر الصدور شخصان من العلماء ، فاجتمعا وأقاما العزاء ، فسئلا عن موجب هذا البكاء ، وإنما الناس في فتوح وهناء ، فقالا : أنتم تعدون هذا السلم فتحا ، وتتصورون هذا الفساد صلحا ، وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط الطوج ، وفتح سد يأجوج ومأجوج ، ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ، وستعلمن نبأه بعد حين وأنشدا فأرشدنا :

---

(١) جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه ، كان التتار قهروا أباه حتى شردوه في البلاد فمات في بعض جزائر البحر ، ثم سلقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذر منذر حتى قُتل وحيدا على يد أحد الفلاحين من قرية بأرض ميافارقين سنة (٦٢٨هـ) البداية والنهاية (١٤٢/٧) .

(٢) خذلوه .

(٣) وهي مجموعة من البلاد منها نيسابور وجزء من بلاد ما وراء النهر .

وَعَلِمْتُ أَنْ فِرَاقَكُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ دَمْعِي دَمًا وَكَذَا جَرَى

وكان السلطان قد دانت له البلاد واستولى على أهل اليفاع والوهاد ، وأباد ملوك العجم وتفرّد بسياسة تلك الأمم ، وتخت ملكه مملكة خوارزم ، وقد صمم العزم بجزم ، وحمل الناس على نزع الخلافة من آل عباس ووضعها في آل علي ، وقد توجه إلى العراق بهذا القصد الجلي ، فوصل إلى حدود العراق وهو مجد على الاتفاق ، فوصل أولئك التجار إلى أنزار من صوب جنكزخان ، وبها من جهة السلطان نائب يدعى قايرخان ، فلما وصلوا إلى البلد أخبر بهم النائب الرصد ، فحبسهم عنده في مكان وأرسل يستأمر فيهم السلطان ، وبشع العبارة وشنع السفارة ، وذكر أنهم جواسيس تستروا بالتجارة ، وأن معهم من الأموال ما يوازي الرمال ويوازن الجبال مصراع<sup>(١)</sup> ، وما آفة الأخبار إلا رواتها .

فأمره بقتلهم وأخذ ما معهم وسلبهم ، ففي الحال أبادهم وسلبهم طارفهم وتلادهم ، وأرسل المال إلى السلطان ، وأوصله حسبما رسم به إلى الديوان ، فطرحوه على تجار بخارى<sup>(٢)</sup> ، وسمرقند ، كما يطرح على مساكين دمشق القند<sup>(٣)</sup> ، واستخلصوا ثمنه بالظلم ، وزادوا عليهم فيه الغرم ، وكان سبب ذلك أن تاجرا عند قايرخان ، أراد أن لا يكون عند السلطان تاجر سواه ، فتبعه قايرخان لما أغواه ، فتمددت الأسباب وانفتح للشر أبواب ، وقالوا : شر أهر ذا ناب<sup>(٤)</sup> ، فلم يفلت منهم سوى رجل واحد أتجاه الله من العدو والحاسد ، فاخنتي واتصل إلى بلاده وأخبرهم بوقوع الأمر وفساده .

(١) المصراع : النصف .

(٢) بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها . وهي مدينة قديمة . وهي مجاورة لسمرقند . معجم البلدان (١٥١٧) .

(٣) القند : جمع قنود كلمة فارسية وهو عسل قصب السكر إذا جمد .

(٤) شر أهر ذا ناب : مثل يضرب في ظهور الشر وعلامته وأمراته .

فغضب جنكزخان وتحرك منه باعث العدوان ، ثم تثبت في أمره وتلبث في فكره ، وأرسل إلى السلطان رسالة فيها تهديد وبسالة ، وكان السلطان خوارزمشاه لما أبدى هذا الخطأ وأنهاه ، طير مراسيمه إلى أطراف الممالك يأمرهم بالمحافظة على دربهات المسالك<sup>(١)</sup> ، ويحرض ولاية الأمور وأصحاب الأدراك في المضايق والثغور ، والطلائع والأرصاء على منع القصاد ، وكف من يخرج من تركستان إلى صوب ممالك جنكزخان ، ثم أرسل من جهته جواسيس يختبر أحوال ذلك الإبليس ، وينظر أموره وأوضاعه ومقدار عسكره وأمرهم في الطاعة ، وما قصده أن يفعل ليستعد له بحسب ما يعلم منه ويعمل .

فتوجهت جواسيس السلطان وطال في غيبتهم الزمان ، وقطعوا انجبال والقفار ، وسلكوا المفاوز والأوعار ، حتى وصلوا إلى بلاده وفحصوا عن أمره واستعداده ، وخبروا أمر جنده وعتاده ، وأوضاع عسكره وتعداده ، فرجعوا بعد مدة مديدة وأزمان وأخبروا بما حققوه السلطان ، وأن عدد عساكره يفوت الإحصاء ، ويذج عن دائرة الاستقصاء وأنهم أطوع البرية للملك ، وأثبت جنانا من الأسد المنهمك ، وأصبر جندا على القتال كأن أمر الهزيمة عندهم محال ، وأنهم إذا وثبوا أو حاربوا ، أو سألوا أو لاسبوا<sup>(٢)</sup> ، أو رابضوا أو ضاربوا ، خابطوا ثم خاطبوا بقوله :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوْسُطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّنَدُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

وأنهم لا يحتاجون في الأسفار ولا عند مقاحمة الأخطار إلى كثير مؤنة ولا كبير معونة ، بل كل منهم ينهض باحتياجه واحتياج مركوبه إلى إجماعه وإسراجه ، ويستبد بعمل سلاحه وجميع ما يستعين به سفرا وحضرا في صلحه وصلاحه ، ونطاحه وكفاحه ، وكذلك ملبوسه وزاده ، وسائر أهبطه وعتاده .

(١) أي من يحرسون حدود المملكة وأبوابها والطرق المؤدية إليها .

(٢) لاسبوا : أي ضربوا بالسوط .

فندم خوارزمشاه على ما قدمت يداه ، من قتل أصحابه وفتح سد الثغر وبابه ، وأنى يجدى الندم وقد زلت القدم ، وتبدل الوجود بالعدم وغرق فى بحر الهموم ، وهَمَى عليه غمام الغموم<sup>(١)</sup> ، فشاور لما لقى الشهاب الخيوقى ، وهو فقيه فاضل ونبيه كامل ، عالم أجل كبير المحل ، له عنده محل خطير لا يخالفه فيما يشير ، فإن رأيه سديد وقوله وفعله رشيد ، فقال له : يا إمام قد تحرك على الإسلام عدو ألد الخصام ، بعساكر كالرمال ذوى صدمات كالجبال ، فما ترى فيما طرا<sup>(٢)</sup> .

فقال : فى عساكرك كثرة ، وأنت ذو قوة ووفرة وزفر أقدامك له زفرة ، فكاتب الأطراف واجمع عساكر الأكناف ، وادع أهل بيضة الإسلام إلى هذا النفير ؛ فإنه عام ، فإذا وفدوا عليك وتمثلوا بين يديك ، توجه بهم إلى نهر سيحون<sup>(٣)</sup> ، واجعل ساحله من تلك الجنود مشحون ، واملأ بهم تلك المهامة والقفار ، وحصن ممالكك إلى حدود أنزار ، فإن أقبل العدو المخذول لم يصل إلا وهو من الكلال<sup>(٤)</sup> محلول ، فإنه يأتى من بلاد بعيدة بجنود عديدة ، وقد أثر فيه النصب وأخذ منه التعب والوصب ، فتلاقيه على سيحون ، وهم كالون ونحن مستريحون .

فجمع بعد ذلك أمراءه ووزراءه وزعماءه ، وعرض عليهم ما جاءهم ، وطلب منهم آرائهم ، فلم يرتضوا رأى الشهاب لأمر يريده مسبب الأسباب ، وقالوا : بل نتركهم حتى يقطعوا الأوعار والمضايق ، ويتوزطوا فى بلادنا

---

(١) الغموم ، مفردا غم : الحزن والهم .

(٢) حلّ فجأة .

(٣) نهر سيحون : نهر فى جنوب غرب الإتحاد السوفيتى السابق ينبع من جبال يقان

شان . ويصب فى بحيرة آرال . معجم البلدان (٦٨٤٨) .

(٤) التعب والإعياء .

بالعوايق ، فتزداد مشقتهم وتطول فى المسير شقتهم ، لاسيما وهم بأرضنا جاهلون وعن مداخلها ومخارجها ذاهلون ، فإذا حصلوا فى قبضتنا كان أمكن لنهضتنا ، فنضيق عليهم واسع رحابها وأهل مكة أخبر بشعابها<sup>(١)</sup> .

وذهل أولئك الجمع عما رآه الفقهاء ؛ وهو أن الدفع أولى من الرفع ، وبينما هم فى المشاورة والمرادة ، ورد قاصد جنكزخان برسالة المناكدة ، وفيها من التشنيع والتفريع والتهديد والتبشيع العجب العجاب ، وما يشيب الغراب<sup>(٢)</sup> ، فمن جملة تشنيعاته ومضمون تهويلاته ما معناه فى فحواه ، كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى ، وأخذتم تجارتى ومالى ، وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم ويقينكم ، أن تريقوا دم الأبرياء ، أو تستحلوا أموال الأتقياء ، أو تعادوا من لا عاداكم ، وتكذبوا عيش من صادقكم وصافاكم ، أتحركوا الفتن النائمة ، أو تنهضوا الشرور الجاثمة ، أو ما جاءكم عن نبيكم وسريكم ، وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم ، وعن ظلم الضعيف قويكم ، أو ما أخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونباكم محدثوكم : (( اتركوا الترك ما تركوكم ))<sup>(٣)</sup> . وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهادته أو صابه<sup>(٤)</sup> ، ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه<sup>(٥)</sup> ، ألا وإن الفتنة نائمة فلا توقظوها .

---

(١) أهل مكة أخبر بشعابها : مثل يضرب للدلالة على أن أهل البلد هم أعرف الناس بدروبها ومسالكها .

(٢) وما يشيب الغراب : مثل يضرب على شدة هول الشيء .

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود : كتاب الملاحم (١١) وأخرجه النسائي : كتاب الجهاد ، باب غزوة الترك والحبشة (٤٣/٦) من طريق خيرة بن ربيعة .

(٤) مره وسينه .

(٥) الأوصاب ، مفردها وصب : المرض .

وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا هذا التلف ، واستدركوا ما سلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، ويتحرك من الفتن حامى الاضطرام ، ويقوم سوق الفتن ، ويظهر من الشر ما بطن ، ويموج بحر البلاء ، ويروج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم ؛ يظهر أسرار ربوبيته وآثار عدله فى بريته ، فإن به الحول والقوة ومنه النصره مرجوة ، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ، ولينساب عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب .

وكان اللعين جنكزخان قد مشى على تركستان ، وأخذ منها عنوة كاشغر<sup>(١)</sup> وبلاساغون<sup>(٢)</sup> ، وصارتا فى حوز ذلك الملعون ، وكانتا فى يد كوجلك خان ابن أونك خان ؛ المار ذكره فى أول القصة ، لما قتله جنكزخان وقصه وهرب ولده كوجلك خان المغبون ، واستقر فى شاغر وبلا ساغون ، إلى أن مشت العساكر عليه ، وأخذت تلك الأماكن من يديه .

فلما وصل هذا الخطاب إلى ذلك الأسد الوئاب<sup>(٣)</sup> ، أمر بمقدم القصاد ورتيس أولئك الورد ، فضربت رقبتة وبمن بقى فحلقت لحيته ، وسخمت بالسواد لحيته ، ثم رد الجواب بأبشع خطاب ومن فحواه وبارد ما حواه : إنى سائر إليك وهاجم عليك بجنود الإسلام وأسود الآكام ، وكل بطل ضرغام ، ولو بلغت مطلع الشمس ، فحلك فى قعر الرمس وجاعلك كذاهب أمس ، فتيقن ذلك واعلم أنك لا محالة هالك ، ورد قصاده على عقبهم وقصد التوجه فى ذنبهم .

- 
- (١) كاشغر : مدينة من بلاد الصين عامرة كثيرة الخيرات فيها متاجر ويضائع وهى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون . معجم البلدان (١٠٠٧٣) .
- (٢) بلا ساغون : بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب كاشغر . معجم البلدان (٢٠٧٥) .
- (٣) الغاضب .

فتجهز وصار بعسكر جرار ، إلى صوب التتار وأوصل السير وسابق الطير ، وأراد أن يسبق الخبر ، ويكسب التتر ويريم عين العلة قبل الأثر ، فألوى من العراق ، وسار وساق فقطع ممالك خراسان ، وولايات ما وراء النهر وتركستان ، وهجم بذلك البحر الزخار فى تلك المهامة والقفار ، فوصل إلى حشم فى بيوت وهم آمنون فى سكون وسكوت ، ليس فيهم غير نساء وصبيان ومواش وبعران ، رجالهم غائبة وأمورهم بواسطة الأمن سائبة ، وكانت رجالهم توجهت لأخذ الثار من بعض التتار بواسطة عدوان وقع بينهم وبين كوجلك خان ، فقاتلوهم وكسروهم ونهبوا أموالهم وهصروهم<sup>(١)</sup> ، وفى غيبتهم وصل السلطان إلى بيوتهم ، وفى أمنهم وسكوتهم ، وليس فيهم إلا الحريم والأطفال والمواشى والأقتال لا يؤبه إليهم ، ولا يعول عليهم . فاستولى عليهم ونهبهم وسلبهم عيشهم وسلبهم ، وأمر العساكر فنهبوهم وأسروهم وفرقوهم وكسروهم وهم الجم الغفير والعدد الكثير والمال الغزير .

ورجع السلطان من فوره ، وابتدأ فى حوره بعد كوره<sup>(٢)</sup> ، وتصور أنه أعنى وأشكى ، وأنه أضحك ولما وعدوا أبكى ، فما هو إلا وضع على القرح كية<sup>(٣)</sup> وداس ذنب الحية<sup>(٤)</sup> .

ثم رجع التتار ورأوا ما حل بأهلهم من بوار ، وأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم ، ونكبوا فى طريقهم وبلادهم ، وأن نساءهم أسرت وصفقتهم خسرت ، فما وقت نصرتهم بكسرتهم ولا قامت فرحتهم بحسرتهم ، التهبوا واضطربوا واصطلموا واصطدموا ، وأخذتهم الحمية ، وعصبتهم

(١) أى قتلهم شر قتلة .

(٢) فى حوره بعد كوره : أى فى نقصانه بعد زيادته ؛ وهو مثل يضرب فى تغير الأحوال من الزيادة إلى النقصان .

(٣) أى كوى جرحه وأشعل ألمه والمراد أنه أشعل الحرب بينه وبين التتار .

(٤) ذنب الحية : طرفها ، والمقصود بالحية التتار .

العصبية ، وتتادوا يا للغارات وطلب الثارات ، وتتاجى منهم حماة الحقايق وكماة<sup>(١)</sup> المضايق ، وتتبعوا فى الحال آثار الرجال ، من غير إهمال ولا إهمال ، وسلكوا الآثار لأخذ الثار ، وأكبوا كالبيرق الخاطف ، وزعقوا كالرعد القاصف ، واندفعوا كالريح العاصف ، واندفقوا كالسهم الناقف ، ودهموا كالليل المدرك وهجموا كالسيل المهلك ، فأدركوا عساكره بشرور ثائرة ، ومرجل صدور<sup>(٢)</sup> بالضغائن فائرة ، فلم يشعروا إلا العدو المضرم غشيم كالقضاء المبرم ، فألوت عساكره ، وقابلت واستعدت وقاتلت ، والتفت الرجال بالرجال وضافت ميادين المجال ، واستمرت ضروب الحرب بينهم سجال ، وتناولت سهام الموت لقصر الآجال ، وتهللت ثنايا المنايا لبكاء السيوف ، وتبسمت ثغور الرزايا لفتوح الحتوف<sup>(٣)</sup> ، واستمرت ديم السهام من غمام القتام على رياض الصدور تهمة<sup>(٤)</sup> ، ولوامع بروق السيوف على قمم تلك الصنوف بعد الواابل الوسمى<sup>(٥)</sup> بالصواعق ترمى ، ثم انتقلوا من معاشقة المراسقة ، إلى مراسقة المعانقة ، ومن مكالمة المضاربة إلى ملاكمة الملاعبة<sup>(٦)</sup> ، ومن مخادعة المقارعة إلى مسارعة المصارعة .

وامتدت بهم الحال فى هذا القتال والجدال ثلاثة أيام مع الليال ، لا يسأمون الطعن والضرب ، ولا يملون مباشرة الحراب والحرب ، إلى أن جرى من الدماء طوفان ، وكاد يظهر سر كل من عليها فان ، كل ذلك وكاتب البيض والسمر ، يستوفى من أقلام الخط فى صحائف الصفائح مستوردات

(١) كماة ، مفردا كمي : الفارس المسلح .

(٢) أى صدورهم تغلى وتثور بالحدق والبغض .

(٣) الحتوف ، مفردا حتف : الموت .

(٤) أى تضيق .

(٥) الوسمى : أول المطر .

(٦) الملاعبة : أخذ بتلابيبه أى صارعه وقتله .

العمر ، ولم يسمع بمثل هذا القتال ولا بنظير هذا الضراب والنضال ، فى سالف الأزمنة والأعصر الخوال ، وما أمكن تولى إحدى الطائفتين ، ولا نكوص جهة من الجهتين .

وأما طائفة المسلمين فلحمية الدين ، ولو ولوا الأدبار نما أبقت التتار ، لبعث الديار وصعوبة القفار ، منهم نافخ نار ، وأما الكفار فللغيرة على ذوات الأستار واستخلاص الأطفال والصغار من قيد الذل والصغار ورق الإسار ، فصارت الخضراء غبراء والغبراء حمراء ، والصحرا بحرا وانقلت تلا ، والجرحى ترحى<sup>(١)</sup> ، ولم يثبطهم عن استيفاء القتال غير انحلال الأعضاء والكلال ، فانفصلوا وما انفصلوا وانقطعوا بعد ما اتصلوا ، وحلوا بعد ما كلوا ، وتراجع كل عن صاحبه بعد ذوبان قلبه وقلبه ، واستقراغ جهده بما وصلت إليه غاية كده .

ثم استوفى ناظر القضاء ما أورده عامل الفناء من سهم المنون إلى نيوان برزخ إلى يوم يبعثون ، من أرواح الشهداء الأبرار ، وأنفس الأشقياء الكفار الوارد من تلك المعركة الساكن من حركات هاتيك التهلكة ، فكان من المسلمين عشرون ألفا ، ومن الكفار كذا وكذا ضعفا ، غير أنه لم يمكن حصرهم ولم يعرف قدرهم ، فلما كانت الليلة الرابعة وهى الليلة الفارقة القاطعة أوقد كل من الفريقين فى منزله النار ، وأكثر من القبائل فى أنمازل والآثار وتركها وسار ، فوصل السلطان من بلاد تركستان ، وقطع سيحون نهر خجند<sup>(٢)</sup> ، ووصل إلى بخارى وسمرقند ، وشرع فى تحصين البلاد والقلاع والاحتفاظ بمدن الممالك عن الضياع ، وقد سكن الهم فواده ، ونهب

(١) الترح : الحزن والهم .

(٢) نهر خجند : يقع فى وسط مدينة خجندة ، هى بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون . معجم البلدان (٤١٣٨) .

القلق والأرق رقاد ، وعلم المسلمون أنه خان وأنه لا طاقة لهم بالنتار ، فخافوا حلول البوار ونزول الدمار ، وتيقنوا خراب الديار ، لأن السلطان عاجز ولا بد من قدوم بلاء ناجز .

وقالوا : إذا كان هذا الخور من شرذمة قليلة من التتر فى طرف من أطراف بلاده ، لا فيهم أحد معتبر من أجناده ، ولا رئيس يشار إليه من أولاده ، ولا درى ولا علم بما جرى ، فكيف إذا دهم بطامته انكبرى وأحشاد جيوشه العظمى فترك خوارزمشاه ببخارى عشرين ألف مقاتل ، وفى سمرقند خمسين ألف مناضل ، وقرر معهم أنه سيجمع الجنود ويستجيش أبطال المسلمين ويعود ، وتوجه بثبات عزم وإضاعة حزم إلى سرير ملكه خوارزم ، ثم انتقل إلى خراسان وخيم بضواحي بلخ فى مكان ، وأقام رخي البال كأن الشىء ما كان ، ثم لازال يضمحل ويذوب ويحل به ما يحله من نوائب الخطوب ، حتى انتقل إلى جوار الرحمن فى أطراف طبرستان<sup>(١)</sup> ، وفى سنة سبع عشرة وستمائة وكانت ولايته فى العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وكان ملكا عظيما وسلطانا جسيما ذا صولة قاهرة ودولة باهرة ، وجولة أرقدت الملوك بالساهرة ، فاضلا فقيها عالما نبيا ، اضمحل بأدنى حركة ملكه ، وغرق فى بحر الفناء بعد الطغيان فكء ، وركن إلى الخطأ فوقع فيه ، وخانته عساكره ومخالوه<sup>(٢)</sup> ودود الخل منه وفيه ، وكان فى خزائنه عشرة آلاف ألف دينار ، ومن أجناس الأقمشة والأمتعة والأسلحة ما لا يحصيه إلا الواحد القهار ، وكان فيها ألف حمل من القماش الأطلس<sup>(٣)</sup> ،

(١) طبرستان : بلاد واسعة كثيرة المياه ومتهدلة الأشجار كثيرة الفواكه . معجم البلدان . (٧٨٤٩) .

(٢) أصدقائه وأقاربه .

(٣) الأطلس : ثوب من الحرير منسوج .

وأضعاف ذلك من نفيس النفائس وأنفس ، ومن الخيل المسومة عشرون ألف جنيب ، ومن المماليك الملوك عشرة آلاف كل له في دار الملك ربع خصيب ، وأوفر حظ ونصيب ، فما أفاد ذلك ذرة ؛ بل نبشوا بعد موته قبره ، وقطعوا رأسه وفجعوا به ناسه ، فسبحان من لا يزول سلطانه ، وعز وعلا من لا يذل شأنه :

فَمَا كَفَّ ذُو كَفٍّ لَهُ رَائِدُ الرَّدَى      وَلَا مَالٌ بِالْأَمْوَالِ عَنْهُ حِمَامُهُ  
وَلَا مِثْلُكَ كَلًّا وَلَا مِثْلُكَ حَمَى      حَمَى مَلِكِهِ لَمَّا عَرَاهُ انْهِدَامُهُ

وبسط المقول فيه شرح يطول .

وأما أمر الطاغية صاحب الفنة الباغية ، جنكزخان ، لما وصل قصاده من عند السلطان بعد الفناء والشدة ، لحاهم مخلوقة ووجوههم مسودة ، وقد قتل رئيسهم وخلا من نقد مرادهم كيسهم ، ذهب حفاظه والتهب شواظه ، وطمت بحار كفره وتلاطمت ، وتزعزعت أطواد شركه وتصادمت ، وبيننا هو يرغى ويزيد ، ويقوم من غضبه ويقعد ، إذ جاءه الخبر الثالث وهو شر الحوادث ، إذ فيه خبر من قتل من الكفار ، وانتقل من دار الخسار إلى دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، فأعمل في قلبه نصله ، وكان أولاً قد زاد على قرحه قرح مثله ، ثم كان خبر هذا القرح ملحا مذرورا<sup>(1)</sup> على جرح ، فقامت قيامته وتعوجت بالحزن قامته ، وود لو أحرق الكون بأنفاسه ، وهدم أساس المكان بفأس باسه .

ثم تروى وافتكر وتهوى من حر هذا الشر ، ثم قصد مذهب الاعتزال وانزوى عن جماعته في مكان خال ، ودخل إلى مكان خراب وعفر وجهه في التراب ، وتضرع إلى الله الحليم وقال : يا خالق يا قديم أنا أردت أن أعمر

(1) مذرورا : منثراً .

بلادك وأنعش عبادك ، فظلمهم يا إله عبدك خوارزمشاه ، وتعدى على وكرر  
الإساءة إلى فانتصر لى منه وانتقم ، فإنك جبر من كسر وعون من ظلم ،  
واستمر على هذه الحال ثلاثة أيام وليال ، لا يأكل ولا يشرب ولا يفتر عن  
التضرع والطلب ، يمرغ رأسه ووجهه فى الثرى ، ويقصد فيما يرومه رب  
الورى ، وقد قيل :

تَضَرَّعَ جَنْكَزَخَانَ لِلَّهِ سَاعَةً وَأَخْلَصَ فِيمَا رَأَمَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ  
فَمَا خَابَ فِيمَا رَأَمَهُ مِنْ فَسَادِهِ وَمَا زَالَ يَعْثُو فِي الْأَتَامِ وَيَسْبِكُ  
فَمَا بَالَ مَنْ لِلَّهِ طَوْلَ حَيَاتِهِ يُوجَدُ بِالْإِخْلَاصِ هَلْ هُوَ يَهْتِكُ

ثم نهض نهضةً أنام فيها الأتام ، وقام قومة أقام بها ساعات القيام ،  
فتوجه من مشركى التتار وعساكر الكفار بالبحار الطامية والأمطار الهامية ،  
وجبال النيران الحامية ، فى شهور سنة خمس عشرة وستمية ، ومشوا على  
ممالك الإسلام وساروا على بسيط العالم سير الغمام ، وأرادوا إطفاء نور  
الإيمان من إشراكهم بظلام ، فوصلوا إلى البلاد وهى جنة المرتاد ، أمنة  
مطمئنة ساكنة مستكنة ، وليس لها مانع ولا ممانع ، ولا لهم عنها دافع ولا  
مدافع ، ولا بها حام ولا محام ، ولا سام ولا معام ، فأخذوا على جند<sup>(١)</sup>  
وقراها ، وولايتهما وما والاهما ، رابع صفر عام ستة عشر ، وأظهروا فيها  
علامات الحشر فأدهشوا وهلها وسبكوا أهلها<sup>(٢)</sup> ، ودكوا جبلها ، وملوا بجبال  
القتلى سهلها ، فقتلوا الخاص والعام ، ومدوا إلى ذخائرها النهب العام ، فأراح  
بها رحله وخيله وأحاط بها ثوره وويله ، واستمروا فى نهبها ست عشرة ليلة  
ثم تنقلوا عن جند ، إلى ولايات إندكان<sup>(٣)</sup> ، وفناكث ، وخجند ، فأخذوها

(١) أى أهلكوا جنودها .

(٢) أى فتكوا بهم .

(٣) إندكان : من قرى فرغانة وأيضاً من قرى سرخس معجم البلدان (١٠٤٩) .

وَقَتَلُوا وَفَعَلُوا كَمَا كَانُوا فَعَلُوا ، ثُمَّ إِلَى بَلَدَةِ مَرْغِينَانَ <sup>(١)</sup> ، وَكَانَتْ دَارُ مَلِكِ إِيْلِكَ خَانَ ، ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ تَرْكِسْتَانَ ، وَمِنْهَا سِيرَامَ <sup>(٢)</sup> وَتَاشَ كَيْدَ وَبَاقِيَ الْبِلْدَانِ ، ثُمَّ إِلَى تَسْفَ ، وَأَنْزَارَ ، وَسَغْنَاقَ ، وَمَا مِنْ أَمْهَاتِ الْبِلَادِ فِي تِلْكَ الْآفَاقِ :

فَمَشُوا عَلَى سَهْلِ الْبِلَادِ وَوَعْرَهَا      مَشَى الْجَرَادُ عَلَى الْقَصِيرِ الْأَخْضَرِ  
فَكَأَنَّهُمْ مُوسَى عَلَى شَعْرِ مَشْتًا      أَوْ مِنْجَلٍ فَوْقَ الْحَصِيدِ الْأَصْفَرِ  
أَوْ شُعْلَةَ نَارِ الْهَوَا فَتَعَلَّقَتْ      فَوْقَ الصَّعِيدِ عَلَى الْهَشِيمِ الْأَغْبَرِ

فَكَلَّ مِنْ أَطَاعِهِمْ وَقَصَدَ اتِّبَاعَهُمْ ؛ صَارَ مِنْ جَلْدَتِهِمْ وَدَخَلَ فِي عَدَّتِهِمْ ، وَمِنْ عَصَى أَوْ تَوَقَّفَ أَوْ خَالَفَ أَوْ تَخَلَّفَ ، سَقَوْهُ كَأْسَ الدَّمَارِ وَأَحْلَوْهُ وَقَوْمَهُ دَارَ الْبِوَارِ ، وَأَسْرَوْا حَرِيمَهُ وَأَوْلَادَهُ ، وَنَهَبُوا طَارِفَهُ وَتَلَادَهُ ، ثُمَّ إِنْ تَلَّكَ الدَّوَاهِيَ الْمَصْمِيَّةَ <sup>(٣)</sup> فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعِ الْمَحْرَمِ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةِ وَسِتْمِيَّةِ وَصَلُوا إِلَى بَخَارَى بَلَدَةَ فَضْلَهَا لَا يَجَارَى ، قَبَّةَ الْإِيمَانِ وَكَرْسَى مَلُوكِ بَنِي سَامَانَ <sup>(٤)</sup> ، مَجْمَعَ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ وَالصَّالِحَاءِ وَالزَّهَادِ ، وَمَنْبَعِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْأَمْجَادِ وَالْمَدْقِقِينَ مِنَ النَّبِيَاءِ وَالْأَنْجَادِ ، وَفِيهَا مِنَ الْأَكَابِرِ وَالْأَشْرَافِ وَأَوْسَاطِ الْأَمَاتِلِ وَالْأَطْرَافِ ، الْجَمُّ الْغَفِيرُ وَالطَّمُّ الْكَثِيرُ .

فَلَمَّا رَأَى الْعَسَاكِرَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالْجِيُوشَ الْخَوَارِزْمِشَاهِيَّةَ ، الَّذِينَ كَانُوا أَرْصَدَهُمُ السُّلْطَانَ لِحِفْظِ الْبَلَدَةِ مِنْ طَوَارِقِ الْحَدَثَانِ ، وَهُمْ عَشْرُونَ أَلْفًا ، أَنْ الْبِلَاءُ زَحَفَ إِلَيْهِمْ زَحْفًا ، وَإِنْ كَسَرْتَهُمْ مِنْهُمْ لَا تَخْفَى وَإِنْ سِيلَ الْوَيْلَ حَطَمَ ،

---

(١) مَرْغِينَانَ : بَلَدَةٌ بِمَاءِ وَرَاءِ النَّهْرِ مِنْ أَشْهُرِ الْبِلَادِ مِنْ نَوَاحِي فَرْغَانَةَ . مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ (١١١٤٢) .

(٢) سِيرَامَ : مِنْ جَزْرِ أُنْدُونِيْسِيَا .

(٣) الشَّدِيدَةُ الْمَهْلَكَةُ .

(٤) سَامَانَ : مِنْ مَحَالِ أَصْبِيْهَانَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ بِنَوَاحِي سَمَرْقَنْدَ . إِلَيْهَا يُنْسَبُ مَلُوكُ بَنِي

سَامَانَ بِمَاءِ وَرَاءِ النَّهْرِ . مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ (٦١٩٩) .

وموج بحر الدواهي التطم ، ومن لم يدرك من الغرق نفسه ارتطم ، شمروا الذيل وخرجوا تحت الليل وقصدوا جيحان<sup>(١)</sup> والعبور إلى خراسان ، ومقدمهم من أمراء السلطان كور خان ، وسونج خان ، وحميد النورى ، وكوحلى خان.

فبينما هم على نهر جيحون قاصدين العبور ، صادفتهم طلائع جنكزخان الكفور ، فوضعوا السلاح فيهم ومحوهم عن بكرة أبيهم ، فما أبقوا منهم عينا ولا أثرا ، ولا سمع لهم أحد خبرا ، فوهى أمر البلد إذ لم يبق لهم مدد ، فطلبوا الأمان وأرسلوا لذلك القاضى بدر الدين بن قاضى خان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأتاب فاطمأنوا وفتحوا الأبواب ، فدخلوا المدينة يرفلون وهم من كل حدب ينسلون ، فعصى بقية العسكر فى القلعة وتصوروا أن يكون لهم منه منعة ، ففى الحال أمر الرجال بطم الخندق<sup>(٢)</sup> بكل ما وجدوا جل أو دق ، فأتوا بنفائس الأقمشة والذخائر المدهشة ، والكتب والربعات ، والمصاحف الشريفة والختمات ، وطرحوها فى الخندق ومشى العسكر عليها وتسلق ، ونقبوا النقب واتفذوا النقب ، وكان قد نادى بالأمان للقاصى والدان ، فعجزت القلعة وذهب ما بها من منعة ، وكان فيها فنة نحو من أربعمائة ، فباشروا الحرب دوما نحو اثنى عشر يوما ، فأخذوا عنوة بالانتخاب وفتح لهم من كل جهة باب ، فقتلوا من بها عن آخرهم ، واستولوا على باطنهم وظاهرهم .

ثم مدوا أيديهم إلى المخدرات وفجروا ظاهرا بالمسترات ، وجعل الناس ينظرون ويبكون ، وهم يفتكون وينكبون لا يستطيعون دفعا ولا يملكون ضرا ولا نفعا ، فاجتمع من أئمة الدين ومن أعلام العلماء المهتدين ، ومن لم يرض

---

(١) جيحان : نهر المصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ومصبه فى بحر

الشام . معجم البلدان (٣٣٩١) .

(٢) أى أمرهم أن يملؤه عن آخره .

بعمل المفسدين جماعة غاروا وثاروا وفاروا ، وانضموا إلى العلامة القاضى صدر الدين قاضيخان ، وأولاده السادة انقادة الأعيان ، والحاكم الشهيد الإمام العالم السعيد والإمام ركن الدين إمام زاده واختاروا الموت على الشهادة ، فحملوا على الفئة الطاغية والطائفة الكافرة الباغية ، وقاتلوا حتى قتلوا وإلى جوار الله مقبلين انتقلوا ، فاستشهدوا عن آخرهم ولحق أصغرهم بأكابرهم .

ودخل جنكزخان إلى المدينة وطاف بها على هيئة وسكينة حتى انتهى إلى باب الجامع ، مكان نزه وموضع رائع ، ومحل شريف ومعبد واسع ، ولم يكن لذلك البلد الكبير وانجم الغفير والجمع الكثير ، والمصر الواسع من الجوامع ، سوى جامع واحد يجمع الصادر والوارد ، ويسع ما شاء الله من الأمم وهذا على مذهب الإمام الأعظم<sup>(١)</sup> ، وهكذا كل أمصار الحنفية في الممالك الشرقية والممالك الهندية ، وغالب البلاد التركية فقال جنكزخان: هذا بيت السلطان ، فقالوا : بيت الرحمن ومأوى عبادة العباد ، والعلماء والزهاد وذوى الطاعة والاجتهاد ، فقال : إن أولى ما أقمنا أفراحنا فى بيت من خلق أرواحنا ورزق أشباحنا .

ثم ألوى إليه وأقبل عليه ونزل عن دابته ، ودخل الجامع مع جماعته ثم دعا بأمرائه ، وكبراء جنده وزعمائه ، واستدعى الخمر والطبول والزمور ، وهش إلى الكفار وعظّمهم ، وبش فرحا واحترّمهم ، فسجدوا له منهم الملوك وضربوا له الجنوك ، وعرفوا جقه ورعوا ، ورفعوا بالثناء صوتهم ودعوا ، فأذن لهم بالجلوس وأن تدار عليهم الكؤوس ، فجلس كل فى مكانه بين أضرابه وإخوانه ، وقام بعض فى مقامه فى موقف حده واحتشامه ، فتصدر فى مجالس العلم والأذكار ومحاريب الصلاة الكفرة الفجار ، ورؤوس المشركين من المغل والتتار ، واستبدلت محافل العلم والتدريس ، بجحافل الشرك والتجيس .

---

(١) الإمام الأعظم ؛ أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام المذهب الحنفى ، تقدمت ترجمته .

ثم أحضروا العلماء والأشرف ، والكبراء ، وسادات الأنام ، ورؤساء الخواص والعوام ، وأنزلوا بهم الثور والويل ، واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيل ، وصارت الناس حيارى سكارى وما هم بسكارى ، وأخذتهم بهتة إذ أتاهم العذاب بغتة ، ولم يكن بين رحيل السلطان وبين هجوم هذا الطوفان غير خمسة أشهر وأيام ، ساروا فيها سير الغمام وهجموا على العالم هجوم الظلام ، وكان الناس كانوا نياما ورأوا فى منامهم أحلاما ، فلم يوقظهم من هذا الرقاد سوى إبراق البلايا بالأرعاد ، فانسد عليهم طريق الخلاص وخانهم المدد فى شدة الاقتصاص ، وتنادوا ولات حين مناص ، إذ فارقهم العسكر وهم فى حال المضطر .

وكان من جملة أولئك الأعيان شخص ولى يدعى السيد الشريف جلال الدين على بن حسن الزيدى ، وهو المقدم والمقتدى ، والمسلك إلى طريق الهدى ، وأعلى سادات ما وراء النهر ، ولدوحة ساداتها بمنزلة الثمر والزهر ، قد قبض عليه وربطوا إلى عنقه يديه ، ثم استنظروه مراكيبيهم ، وأنشبوها فيه مخائبيهم ، وهو واقف بباب الجامع فى هيئة الذليل الخاضع ، فرأى الإمام الهمام ، البحر الطام ، علم العلماء الأعلام ، أفضل علماء عصره ، وأنبئ فقهاء دهره ، الشيخ ركن الدين ابن الإمام ، بؤأهما الله تعالى دار السلام وهو فى مثل حاله ، متيسر بل بسر بال نكاله .

فقال : أيها الإمام المفضال ما هذه الأحوال ، ثم أنشد معنى هذا المقال :

أرى حالةً بذتُ لِسَانِي فَلَيْسَ لِي      طَرِيقٌ إِلَى أُنَى أَفْوِهِ بَلْفَظَةٍ  
أَعْضُ لَهَا كَفَى وَأَمْعُكَ مُقَلَّتِي      أَيْ النَّوْمَ هَذَا أَمْ أَرَاهُ بِيَقْظَةٍ

فأجاب الإمام : ما هذا محل الكلام ، كن عبد الإرادة واتبع ما أَرَادَهُ .

واستمروا يشربون الخمر على أصوات الزمور ، ويضربون الطبول ، ويتراقصون رقص التتار والمغول ، ثم صعد المنبر ابن جنكزخان الأكبر

واسمه توشى خان ، وتكلم بكفر وكفران ، ثم غنى ورقص ، ودعا لأبيه  
ونكص ، ثم صعد بعده أبوه وتكلم بكلام سمعوه ، ودعا بالخمير وشرب ، ثم  
غنى وطرب ، ثم قال : أيها الرجال إن خيلنا هي رأس المال ، وقد رعيتم  
الوهد والبقاع ، وحلقتم شعور الكلا من قمم البقاع ، وقد شبعتم فلا تتسوا  
للجياج ، ألا فأشبعوا خيلكم ولا تحرموها نيلكم ، وحيث رعيتم الخضم<sup>(١)</sup>  
فابغوا لها القضم<sup>(٢)</sup> ، وامتلوا أمر سلطانكم تحظوا منه بأمانكم .

فنهضوا قياما وامتثلوا مرسومه مراما ، وتهارجوا كالحمير ، وابتدروا  
طلب القمح والشعير ، ثم طغى وتكبر ، وبغى وتجبر ، ونزل عن المنبر فلم  
يكن بأسرع من إتيانهم بالحبوب والقضم المطلوب ، وأدخلوا الخيل إلى  
الجامع ، وطلبوا لها مرابط ومواقع ، ثم أفرغوا خزائن المصاحف  
والختمات وظروف الكتب وأوعية الرُبعات<sup>(٣)</sup> ، وصبوا فيها الشعير ،  
وأطعموا فيها الخيل والبغال والحمير ، فتبددت الكتب المنيفة ، والمصاحف  
للشريعة ، والرُبعات المعظمة والختمات المكرمة ، تحت السنايك والحوافر ،  
ومواطئ أقدام كل كافر ، وصارت أبحر القاذورات والخمور على تلك  
النفائس والذخائر تمور .

ثم أنه خرج من البلد وأمر أن لا يترك في البلد أحد ، بل يخرجون إلى  
المصلى وولى حفظهم من كفر وتولى ، ومن تأخر قتلوه وبتكوه وبتلوه ،  
فخرجوا كالجراد وانتشروا على الوهاد ، واجتمعوا فى المصلى ، ثم على  
المنبر تعلو وخطب خطبة تركية كافرية مشركية ، منها : ركبتم عظامم وأتيتم  
مآثم وجرائم ، فتقدم ربكم إليكم أن سلطنى عليكم ، وهذه الأوزار إنما جناها

(١) الأرض الكثيرة النبات .

(٢) شعير الدابة .

(٣) الرُبعات ، مفردا رباعة : المنازل .

منكم الكبار ؛ فلأجل هذا عم البلاء ، وذهب بجريمة الكبراء الأصاغر  
والضعفاء ، ثم ضبط أسماء التجار ، واستخلص ما عندهم من درهم ودينار ،  
وقال : هذا ثمن مالى من نقد وأعيان الذى كان منحكموه السلطان .

فلما استخلص الأموال ، أمر بقتل الرجال وأسر النساء والأطفال  
والنهب العام لسائر الأغنام ، ومن أخذ شيئاً فهو له لا يقطع أحد سبيله ، ثم  
أمر بهدم البلد والإحراق ، وإعدام عينها على الإطلاق فمهما قال : فعلوه  
وكل ما رسم به امتثلوه ، فساروا بالبلد الأرض ، واستوفوا أعمار أهلها  
بالفرض والقرض ، فلم يبق منهم ديار ، ولم ينج من تلك النار العظيمة نافخ  
نار ، وقيل : إنه نجا من هذه الواقعة رجل باقعة<sup>(١)</sup> ، فوصل إلى خراسان  
فسأله عن هذا الشأن كيف كان فقال لهم بذلك اللسان ما صورته :

آمدند وكدند وسوختند وكشتند وبرند ورفند

يعنى : هجموا وهدموا ، وأحرقوا وأرهبوا ، ونهبوا وذهبوا . فقيل : لم  
يوجد فى الفارسي فى هذا المعنى أحسن من هذه الألفاظ ولا أرسن ، ولا  
أوجز ولا أمتن .

ثم أمر الجند بالتوجه إلى سمرقند ، فتوجهوا بالانتقال من الأموال،  
والأسرى من النساء والأطفال ، مشاه حفاة أذلاء عراة ، فلم يتوقف كل أعتى  
أعقف<sup>(٢)</sup> وكافر أغلف فى ضرب رقبة من أعيان أو توقف ، فوصلوا إليها  
وأخنوا عليها ، وفيها من العساكر الأكفا مائة ألف وعشرون ألفاً ، سبعون من  
أهل البلد وخمسون من المرصدين للمدد ، فتجهز عسكر البلد للقاء وخرجوا  
من البلد للملتقى ، فكمن لهم التتار من اليمين واليسار ، فى رواب وتلال

(١) داهية .

(٢) أعتى : أعمى . والأعقف : الأعرج .

تسمى بالأحصار ، فناوشيم من عساكر الكفار شرذمة ، ثم ولت أمامهم منهزمة ، فركب البلدين أعقابهم وداسوا أذنايبهم إلى أن أبعدوا عن البلد ، وانقطع عن البلديين المدد ، خرج الكمين من خلفهم لقطع رجل مددهم وكفهم ، ورجع عليهم الفارون ، وأحاط بهم الغارون ، وتلاحق بهم عساكر لا أول لهم ولا آخر ، فلم يفلت منهم واحد ولا صدر عن خياض تلك الملحمة وارد .

فلما شاهد العساكر الخوارزمشاهية ما نزل بالجنود البلدية من داهية ورزية لم يسعهم إلا الترامى عليهم والانحياز إليهم ، فداروا وداروا وانثيب من دارى ؛ فوقوا بذلك أنفسهم وأهليهم نارا ، فلم يركنوا إليهم ولا اعتمدوا عليهم فرأوا مصلحتهم فى سلبهم أسلحتهم ، فطلبوا منهم عدتهم ، ثم فرقوا عدتهم ، كما فعل تيمور الغدار فى بلاد الروم بالتتار ، عند كسر ذلك الخوان فى سنة خمس وثمانمائة بايزيد بن عثمان ، فلم يبق لأهل البلد معين ولا مدد ، فاستسلموا للقضا ، وجروا طوعا وكرها فى ميادين الرضا ، فأحل بهم بوارا وأنزل دمارا ، ففعل بسمرقند وأهليا ما فعل ببخارى ودور أسوارها ، بدلالة آثارها ، من الفراسخ اثنا عشر لا يمتري فى ذلك اثنان من البشر .

ففس ما فى ذلك من الخلائق والأمم فالكل يراهم سيف القلم ، كما يبرى انسيف القلم ، ثم قوى العزم وسدد الحزم ، وجيز طائفة من العساكر إلى خوارزم ، مع ولديه أحدهما المرحو : بجفتاي والآخر المسمى : باوكتاي ، وهى تحت خوارزمشاه ، وفيها من الأمم ما لا يعلمه إلا الله ، معدن الأفاضل ومقطن الأمائل محط رحال أهل التحقيق ، ومقصد رجال الفحول ذوى التدقيق ، ولوفور ما بيا من الرؤوس لم ينفرد برياساتها رئيس ؛ لكثرة ما بها من الناس ، لم يتعين لسياستهم راس ، فاتفق أكابرها لضبط أمور المسلمين على تقديم شخص يدعى حمارتكين ، فبعد حروب يطول شرحها ويهول برحها ، ويجب قرحها ، ويستحب طرحها ، أخذوا عنوة بعد ما قاسوا جفوة ،

فاستصفوا أرباب الحرف ومن تعلق من صنعة بطرف ، فكانوا نحواً من مائة ألف بيت . أو يزيدون إن عددتهم وعديت ، ثم ميزوا النساء والأطفال وكانوا كعدد الحصى والرمال ، ففرقوهم على ذلك العسكر الثقيل ، فكفى الحقيير منهم والجليل ، ثم فصلوا بالحسام المفصال ، مدارع ذوات ما بقي من الرجال .

ثم أرادوا حصر من قتل وإقامة عدد من بتك وبتل ، فكان حصة كل فتاك قتال ، على أن عددهم أكثر من القطر والرمال ، أربعة وعشرين مقتولاً ، ثم فعلوا بالبلد كعادتهم الأولى ، فهدموا أسوارها ومحو آثارها ، وأجروا من بحر الدماء أنهارها ، فانمحي العلم والعلماء ، واندهى الفضل والفضلاء واستشهد الرؤساء والكبراء ، وناهيك بالقطب الولي الشيخ نجم الدين العكبرى.

وتوجه جنكزخان من سمرقند قاصدا السلطان ، ومر من أطوار عسكره بكل أخشب<sup>(١)</sup> حتى أناخ على ترمذ ونخشب<sup>(٢)</sup> ، فامتعتا عليه ، ولمناعتهما لم تلتفتا إليه ، وكانتا كثيرتى العدد والعدد غزيرتى المدد من مدد ، وهما من أمهات البلاد مملوأتان من آلات الجهاد ومقاتلة الأجناد ، فأهلك ناسهما ، وسقاها من خمر التشريد كاسهما ، فلم يبق لهما فياً<sup>(٣)</sup> ، ولم تغن العدد والعدد عنهما من الله شيئاً .

ومن غريب ما وقع من البدع ، أنه أمر بأهل ترمذ أن يقتلوا عن آخرهم مع أهلهم وعشائهم ، ولا يبقى فيها على أحد ، وأرصد على ذلك الرصد ، فاتفق أن امرأة من المخدرات تخجل الشمس النيرات ، قبضوا عليها وتقدموا بإراقة دمها إليها ، فتشفعت فما أفاد ، وتضرعت فما زاد إلا

(١) الجبل .

(٢) نخشب : من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند . معجم البلدان (١١٩٦٣) .

(٣) الغنيمة والأملك .

العناد ، فلما أسلمت وتلوها للجبين ، وعلمت أنه جاءها الحق المبين ، قالت لأولئك الكفار : لا تقتلوني يا حضار وأنا أفتدى نفسي منكم بعقود من اللؤلؤ كبار ، فأنهوا القضية إليه وعرضوا ما قالته عليه ، فقال : اتركوها ثم بما قالت طالبوها ، لننظر أصدقت أم اختلقت ، فأطلقوها وبتقاضى اللؤلؤ ألقوها ، فقالت : لم أفه بزور ولا دليتكم بغرور ، وإنما اللؤلؤ كان عندي وحين استخلصتم مالى كان فى يدي فخفت منكم فابتعلته ، وتبأ لفعل صنعته ، فأمهلونى حتى أتبرز ويخرج منى ذلك المخرز .

فأنهوا كلامها إليه وعرضوا أمرها عليه ، فقال : ابقروا بطنها ، وانظروا قطعها ، فإن وجدتم شيئاً فهو لكم وإن كانت كاذبة فقد استحقت فعلكم ، فشقوا بطنها البطين واستخرجوا منه الدر الثمين ، فلما رأوا صدقها وحققوا نطقها ، وأمرهم بشق بطون جميع القتلى وتفتيش ما طرحوه من جبال الأشلا ، فلم تتج رؤوس الروس من المثلة بعد القتل ، ولا بطون الصدور من ظهور التنكيل أثر البتل .

ثم أمر بهدم الحصون بعد ابتذال المال والعرض المصون ، فمحت الديار ولم يبق فيها ديار ، ثم عبر من جيحون إلى خراسان ، وجعل نصب عينيه ممالك السلطان ، وتوجه إلى بلخ وهى إحدى معاقل الإسلام ، وفيها من أمم الأنام ما لا يدرك ضبطه سابق الأقالام ؛ بل يخرج عن حصر الأوهام ولا يحصيه إلا الملك العلام ، وكان السلطان قد انشمر عنها كما ذكر- إلى نواحي ظبرستان ، فوصل بتلك البحار الطامية فى ثمان عشرة وستمية ، فخرج إليه الأعيان وطلبوا منه الأمان ، فأجاب سؤالهم بما يصلح حالهم ، ثم اختسئ من السلطان جلال الدين بن المرحوم قطب الدين ، فلم يركن إليهم ولا عول عليهم ، فأمر بإراقة الدماء وهدم البناء ، وإحاطتهم بدائرة الفناء ، فأفنوهم عن آخرهم ، وساووا بالحضيض بقاع عمائرهم .

ثم أرسل ولده تولى خان إلى محاصرة طالقان<sup>(١)</sup> فعصت عليه ، ولم تسلم قيادها إليه فاستمرت فى الحصار مدة ، وأذاقها لباس الباس والشدة ، إلى أن أخذوها وأبادوا خلقها ودكوها ، ثم إن جنكزخان الكافر الخوان ، معدن الكفر والطغيان ، لما استوبل هواء خراسان فألوى إلى بلاده وترك تولى خان من أولاده وولاه خراسان ، وهو محاصر طالقان وأقام فى ممالك إيران<sup>(٢)</sup> ، من كفار أمرائه أميران ؛ أحدهما يدعى : سنتاي وهو من قبيلة الجفتاي ، والآخر يدعى : يما وهو من الكفار اللؤما ، وترك معهما من الكفار الأراذل والتتار الأسافل ثلاثين ألف مقاتل .

فوصلا إلى رواه ، ووضعوا السيف فى الأئمة الهداة ، وابتدءا فى القتل والنهب ، والفتك والسلب ، والقهر والأسر ، والقسر والكسر ، ثم أخذوا فى الاتلاف طريق الاتلاف ، وذهب كل منهما للاختلاف فى الفساد على مخلاف ، فصالا وجالا ، وأوسعا فى الدمار والبوار مجالا ، وخاضا فى دماء المسلمين واجتهدا فى إهلاك الإسلام والدين ، وخلا لهما الجو فباضا وصفرا ، وكان السلطان قطب الدين قد أخلى الدنيا من الملوك والكبرا ، فلم يثبت لهما مقابل فضلا عن مخالئل أو مقاتل ، فأهلكا الدين وأبادا وتصرفا فى نصرة الشرك على الإسلام كيفما أرادا ، فاستخلصا جوين<sup>(٣)</sup> وطوس<sup>(٤)</sup> ، وأعدما ما

(١) طالقان : مدينة فى الديلم قرب قزوین ، إليها ينسب لصاحب بن عبد . معجم البلدان (٧٨٣٧) .

(٢) إيران : إيران شهر وهى بلاد العراق وفارس والجلال وخراسان يجمعها كلها هذا الاسم . معجم البلدان (١١٧٩) .

(٣) جوين : اسم كورة جبلية نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، تسميها أهل خراسان كويان فعربت فقيل جوين . معجم البلدان (٣٣٧٣) .

(٤) طوس : مدينة بخراسان بينها ومن نيسابور نحو عشرة فراسخ فتحت فى أيام عثمان ابن عفان رضي الله عنه . معجم البلدان (٨٠٠٧) .

بهما من نفائس ونفوس ، وحام وخبوشان واسفراين ومازندران وآمل وقومس<sup>(١)</sup> وتلك البلدان فمحووا من كتب كتائبها أسطارها وأطفؤا منارها ، وأظهروا من صفة الجلال والقهر آثارها ، وأجروا من الفتن كالدماء بحارها ، وأضرموا من الشرور نارها ، كل ذلك قتلا ونهبا ، وسييا وسلبا ، وهدما وإحراقا ، وصدما وإرهاقا ، وردما وإغراقا .

ثم بلغهم أن حريم السلطان جلال الدين في قلاع آمل آمنين ، فقصدوها وحاصروها ، ورسدوها قتل ناصروها فاستولوا عليها ، ووصلوا كما أرادوا إليها فبقروا وفتكوا ، وبروا وبتكوا ، وسبوا وسبكوا ، وسفوا وسفكوا وكووا وشووا ، وغووا ولووا ، وعووا وما ارعوا<sup>(٢)</sup> .

ثم إنهم صادفوا العكس الزمان وانقلاب الدهر على السلطان ، وسوء التدبير وشؤم الحظ المبير ، وهم في بعض المسير من غير مخبر ولا معلم في سدفة ليل مظلم ، حريم السلطان خوارزمشاه لأمر قدرها الله مع والدته وجواريه وبناته وسراريه ، وكان لشدة ما نابهم من الزمان قد ضاق عليهم المكان ، وتغير بل تتكر لهم الكون وقل عنهم النصير وقل العون ، وخافوا الابتذال بعد الآصون ، فتركوا ما هم فيه من مكان ، وقصدوا البعد عن خراسان ، فتوجهوا إلى أطراف أصفهان<sup>(٣)</sup> ، ومعهم من نفائس الأموال والجواهر وأنواع المفاهر والذخائر ، ومصونات الخزائن ومكونات المعادن ، ما لا يعلمه إلا مانحه ، ومن الكنوز ما ينوء بالعصبة مفاتحه ، وما لم يجتمع لسلطان قط ولا ضبطها قلم ديوان ولا خط ، فتباغتوا مواجهة وتواجهوا

---

(١) قومس : هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي بين الري ونيسابور . معجم البلدان (٩٩٨٧) .

(٢) أي ما كفوا عنهم .

(٣) أصفهان : مدينة في وسط إيران بين طهران وشيراز . معجم البلدان (٧٢٩) .

مباغثة ، وتباهتوا مشافهة وتشافهوا مباحثة ، فوقعن فى شبكة الصيد ، وأحاطت بهن دائرة الكيد ، وتورطن فيما فررن منه ، وتربطن بأوهاق ما نفرن منه ، وناداهن لسان الحظ ، وهاتف الطالع الفظ :

وإذا أراد الله إنفاذ القضا      وظهور قهر للبصائر باطلا<sup>(١)</sup>  
جعل الدواء لذاك داء ممرضاً      وفوائد للترياق سماً قاتلاً  
والكون خصماً والمكان مناقضاً      والعيش موتاً والصديق مقابلاً

فلم يشعرن إلا وقد وقعن من نيران الفتن فى تنور ، وتورطن من بحار المحن فى دررور ، وتبسمت إلى بكاتهن ثايا المنايا ، وتكالمت على جباه مصابهن عقود الرزايا ، فظفرت حامية الكفر بذلك المغنم البارد ، ولم يصدر من حلقة صيده شارذ ولا وارد ، فحازوا تلك المسترات ، ونزل إلى حضيض قنصهم من سماء المناقسة الشمس النيرات ، فهتكوا أستارهن ، وخربوا ديارهن ، وضبطوا أشعارهن وندثارهن ، وأحرزوا ما معهن من كنوز المعادن ، ونفائس المكامن ونخائر الخزائن ، ثم أضافوهن إلى زبانية غلاظ واحتفظوا بهن أشد الاحتفاظ وساقوهن إلى بلاد التتار ، مهتكات الأستار عاريات حافيات حاسرات ماشيات .

وأمرهن أن يجتمعن كل ليلة عندما ينشر الظلام نيله فى كل منزلة ، وصباح كل مرحلة ، ويقمن على أنفسهن العزا وينحن بما تقدم ويبكين بما جرى ، ويعددن على خوارزمشاه ، ويذكرن ما قدره الله عليه وقضاه ، وينعين ما كن فيه من النعم ، وما صرن إليه من الهوان والنقم وليدمن على هذه الطريقة حتى يقطعن من سفرهن طريقة ، ويصلن بجنكزخان على ذلك الامتهان والذل والهوان ، فيرى فيهن رأيه من نكال ونكاية ورحمة وعناية ،

---

(١) بقلا : أى قطعه .

فامتثلن ما أمرهن به فكن ينبهن النيام ، ويبكين المتببه ، واستمررن على هذه الحال فى الخزى والإذلال والمشقة والابتذال ، بعد ذلك الصون والدلال ، يصدعن بنحيبهن الجبال • ويتفطرن بالنظر إليهن أكباد الصخور والتلال .

ثم أن تولى لما أخذ طالقان ، وأهلك أهلها بسيف الطغيان ولم يدع فيها من يتنفس ، وهدم إلى الأرض بنيانها المؤسس ، توجه جانب من بلاد العجم ، وأهلك ما شاء الله تعالى من خلثق وأمم ، فصار فى أحد الجوانب يعبث ، وكل من سنتاي الخبيث ويما الكافر العثيث فى جانب يبيد انمسلمين ولا مغيث ، فدكوا قزوين وهمذان<sup>(١)</sup> وذكوا أران وبيلقان ، وأغاروا على ممالك أذربيجان .

وبلغهم أن السلطان جلال الدين له فى سجاس<sup>(٢)</sup> جماعة مجتمعين ، مقدمهم السلاحدار بكتكين ، وفيهم من الأعيان كوحبو شاخان ، فتوجه إليهم بما فبدد شمل أولئك الزعما ، وأبادهم وفرقتهم وشنتهم ومزقتهم ، ثم غاروا على غالب عراق العجم ، فأوسقوا القفار بالضرم ، وأوسعوا البحار بأمطار الدم ، وملؤا الوجود بالعدم ، ثم قصدوا أردبيل<sup>(٣)</sup> ، وجعلوا أهلها ما بين أسير وقتيل ، وكتوا فى أول المرور ، قد صالحوا أهل نيسابور ، وانتقلوا إلى مَرء، ومنها وراودوا أهلها عنها ، فأغلقوا أبوابهم وألقوا جوابهم ، فحطموا عليها ، ودخلوا إليها ، وحكموا فى أهلها السيوف وكان شهر الصيام ففطروهم على كاسات الحتوف ، ونقل إلى جوار الله تعالى منهم المنين والألوف ، فضبطوا من أمكن ضبطهم من القتلى ، واستسعد بنيل الشهادة من الشهداء ، فكان ألف

(١) همذان : مدينة إيرانية جنوب غربى طهران . معجم البلدان (١٢٧٤٥) .

(٢) سجاس : بلد بين همذان وأبهر وهى من مدن أذربيجان . معجم البلدان (٤٣٣) .

(٣) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان وهى مدينة كبيرة جداً يتسرب فى ظاهرها وباطنها عدة أنهار كثيرة المياه . معجم البلدان (٤٣٣)

ألف نسمة ، وثلاثمائة ألف وثلاثين ألفا مكرمة ، وكل هذه الفتنة والفتنة<sup>(١)</sup> فى سنة ثمان عشرة ، عامت الدنيا فى الدماء عوما ، وكانت مدة نحو تسعين يوما . ثم توجهوا إلى شروان<sup>(٢)</sup> وأفاضوا من دماء البحار الطوفان ، ودخلوا من الباب الحديد واتصلوا من الدست<sup>(٣)</sup> بذلك الشيطان المريد ، فتيقظ الناس من الفكرة وأفاقوا مما كانوا فيه من السكره ، وتصوروا أنها سحابة صيف انقضت ، أو نسمة أزمنة هبت بارقة أو مضت ، ولكن احتاطوا واستعدوا وتحفظوا واستمدوا ، وحصنوا الحصون والمعازل وجمعوا الجنود والجحافل ، فلم يكن بأسرع من إيابهم وتعاطى ما كانوا عليه من دأبهم ، والشروع فى أعمال حرابهم بخرابهم ، وأخذهم فى ضروب ضربهم وضرابهم ، واستقر تولى فى ممالك العجم ، وهو أبو هلاكو الكافر الأغم<sup>(٤)</sup> ، فوصلوا إلى شيزار وقد استعدت للحصار واستمدت للمناوشة والنقار ، فأخذوها عنوة وزحفا ، وقتلوا منها مما أمكن ضبطه سبعين ألفا .

ثم توجهوا إلى طوس فأزهموا ما بها من نفوس ، ثم إلى سائر القلاع بالحضيض واليفاع ، فاستولوا على الكل قهرا ، وأخذوه عنوة وقسرا ، وسعوا فى إحلال النبوس وإزهاق النفوس ، ثم إلى موقان<sup>(٥)</sup> ولم يبقوا بها أحدا كائنا من كان ، وعم القتل المبير كل صغير وكبير ، ثم حل أولئك البور ببلدة نيسابور ، فكافحت بعدما كانت صالحت وتحصنت ، بعد أن أذعنت واعتمدت على عددها واستندت إلى عددها ، وبرجالها استعانت بعد أن كانت قد دانت ،

(١) الإنكسار والضعف .

(٢) شروان : مدينة من نواحي باب الأبواب الذى تسميه الفرس الدربند بناها أنوشروان فسميت باسمه . معجم البلدان (٧٠٨١) .

(٣) الدست : جمع دسوت (كلمة فارسية) تعنى المجلس .

(٤) الأغم : أى به نقص لا يفصح فى كلامه .

(٥) موقان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة . تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم . معجم البلدان (١١٧٢٤) .

ولانت واستكانت ، وكان فيها من آلات الحرب ورجال الطعن والضرب ، مالا يحصى ولا يبلغه الاستقصا ، فكان فيها من المجاتق<sup>(١)</sup> المرسلات الصواعق على أسوار الحصار ، ثلثمائة منجنيق أصغرها كالغضبان في المقدار ، خارجا عن المكاحل والمدافع ، المهلكات بالصواعق الصواعق ، ومن رماة القوس القصير المنفذ حكمه قاضى التقدير ثلاثة آلاف بطل ، كلُّ أرمى من بنى ثعل<sup>(٢)</sup> ، وأما عدد الضارب والنابل والقاتل والمقاتل والرامي والناطح ، والصارع والقارع ، والحاذف والجارف ، والخاطف والقاطف ، والناهب والسالب ، فالضابطون فيه تاهوا وما يعلم جنود ربك إلا هو .

فوجه التتار الهمة إليها وأخذوا كالتضاء المبرم عليها ، وحمى الوطيس وخطر بنفسه كل خسيس ، وبذل مهجته من الغزاة كل نفيس ، فقتل من أهل العدوان طغا جارخان زوج ابنة جنكزخان ، وكان من عتاة الكفار ، المعتبرين بين التتار فحنق العدو لذلك وسدوا المسالك ، وسمع بذلك تولى الكافر الموغولى وكان فى بعض الجوانب ، مشغولا بالدواهي والمصائب ، ففار دم قلبه وتأجبت نيران كربه ، وتأسف لفقد خنته ، وثار غبار إحنه<sup>(٣)</sup> .

فتوجه من فوره بحنقه وهوره ، ونزل على نيسابور وحل بالبوار على أولئك البور ، وزحف بالعساكر وتقدم بالطعن والضرب كل كافر ، فلم تمض غلوة حتى أخذوها عنوة ، ودخلها من كفر من التتر يوم السبت خامس عشر صفر ، سنة تسع عشرة وستمائة من الهجرة ، وأعطى تولى لأخته ذلك عوضا عن زوجها الهالك ، وقال لها : تسلى عن ذلك المفقود بهذا الموجود ، وتحكمى فى أهل البلد بما ترتضيه من سرور ونكد ، وتصرفى فى الأموال والأرواح فمهما تريه فهو لك مباح .

(١) المجاتق : مفرد منجنيق وهو آلة حربية كانوا يرمون بها الحجارة (كلمة يونانية) .

(٢) بنى ثعل : قبيلة بنجد .

(٣) أى ثار عبدا لحقده ويفضه .

فأمرت أن لا يبقى على ذى روح ، وأن تجرى السيول من الدم المسفوح ، فاطلقوا فى ميادين الحثوف أعنة<sup>(١)</sup> صوارم السيوف ، فجدت جباه الجياد وجدانت بجود الجد على أجياد الأجواد ، وصارت كألسن الشعراء النقاد تهيم من النظم والنثر فى كل واد ، فمحووا عن لوح الوجود ، بلسان شواظ السيف ذات الوقود سطور ذوات ذلك السواد الأعظم ، وكتاب كتائب تلك الخلائق والأمم ، وزادوا فى الاشتطاط حتى قتلوا الكلاب والقطاط ، ثم أمرت أن تجمع رؤس أولئك الجمهور ، ويميز رؤس الإناث من الذكور ، فميزوا رؤس الرجال عن قمم ربات الجبال<sup>(٢)</sup> ، وطرحوا كل كاشية<sup>(٣)</sup> فى ناحية ، فصارت الرؤس كرواسى الجبان ، وتلك الدور والقصور كالأعصر الخوال ، ولم يخلص من قطع الأرووس سوى أربعة أنفس كانوا من ذوى الحرف فجذبتهم المهارة من سفح بحر الفناء إلى الطرف .

ثم ركبت تلك البسوس<sup>(٤)</sup> ، ووقفت على تلال الرؤوس فلم تتطفئ نارها ولا بردا واراها ، وزعمت أنها لم تستوف ثأرها ، وأن دود ترابها من علق تلك الأمم ما تكفت وغيظة غيظها بزرائر السيوف ما تكفت ، واستغائت بالرجال وصاحت بلسان الحال ، وأنشدت :

وَهَبْ أَنْ النَّسَاءَ سَلَّنَ سَيْفَا	فَصَلَّنَ وَجَلَّنَ كَالْفَحْلِ الْغَيُورِ
فَزَلَّزَلْنَ الْجِبَالَ فَطَرْنَ خَوْفَا	يُضَاهَيْنَ السَّحَابَ عَلَى الطَّيُورِ
وَصَارَ لَسْتَكِينُ الْبَرِّ بَحْرَا	أُغْنِيَهُنَّ ذَلِكَ عَنِ الْأَيُورِ <sup>(٥)</sup>

(١) أعنة : أى اللجام أو الحبل الطويل .

(٢) ربات الجبال : جمع جبل وهو موضع تزين العروس .

(٣) كاشية : أى قطعة من الجسد .

(٤) البسوس : حرب جرت بين تغلب وبكر فى الجاهلية . أثارتها امرأة تدعى البسوس ، قتل ناقتها كليب بن ربيعة التغلبى فقتله جساس بن مرة البكرى . فقام المهلهل يطلب بثأر أخيه كليب ، ودامت الحرب أربعين سنة . اشتهرت بشعر المهلهل فى رثاء أخيه .

(٥) الأيور : حر النار والشمس والعطش .

فأمرت بهدم البلد وإحراق ما فيها من آلات وعدد ، فدكوها دكا وأعدموها سبكا وسفكا ، وتصرفت أيدي النواب فيها فتكا وبتكا ، ثم أن تولى لوى العنان وقصد هراة<sup>(١)</sup> من خراسان ، فأخذها بالأمان ولم ينج من ذلك الطوفان سوى تلك الكورة<sup>(٢)</sup> ، واستمرت تحت أوامرهم مقهورة ، وأمها ت بلاد خراسان ومقر سرير السلطان ، كانت أربعة أمصار كل ذات اعتبار ، جليلة المقدار نيسابور ، وقد صارت بور ، وبلغ وقد كسيت من البوار ثوب سلخ ، ومروا لروود وقد انمحت من الوجود ، ولم يفز بالنجاة إلا بلدة هراة وسائر الأمصار شملها البوار ، ولبست من خلع الدثور والدثار ، وكل منها مصر جامع ، وبرها بحر واسع وبحرها كصدر البر مداه شاسع .

وأما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات<sup>(٣)</sup> ، فأكثر من أن تحصر أو تضبط بحساب دفتر ، فأبيد ذلك كله وأبهر فالحكم لله العلى الكبير ، كل ذلك فى أدنى مدة وأوهى رقدة وما ذكر ذرة من طور وقطرة من بحور ، فسبحان من لا يسئل عما يفعل .

ثم إن جنكزخان الهامة الهامية ، والفتنة الطامة الطامية ، لما علق به المرض وحصل له فى خراسان العرض ، رجع إلى بلاده واستمر مرضه فى ازدياده ولم يزل على ذلك حتى أورد سبيل المهالك ، وتسلم روحه الخبيثة مالك<sup>(٤)</sup> ، وحين أيس من الحياة وقنط من رحمة الله ، جمع المعتمد عليه من أولاده المشاركين له فى عتوه وفساده ، وهم جفتاى وأوكتاى وأولبخ نوبين

(١) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمها ت مدن خراسان فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة مشهورة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء . معجم البلدان . (١٢٦٦٤) .

(٢) الكورة : القرية الصغيرة .

(٣) الرساتيق : القرى الصغيرة . والمزدرعات : الأماكن المزروعة والحقول .

(٤) أى ملك الموت .

وجرجاي ، وكاكان وأورجان ، وأوصاهم بوصايا وطرائق فى سياسة الرعايا، حافظوا عليها وتناهضوا إليها ، فثبت لهم من ملكهم أساسا لم ينهدم ، وأقام بنيانا إلى يومنا لم ينخرم وعروش قواحد أركانها لم تتنلم<sup>(١)</sup> ، مع كثرة عددهم ووفرة مددهم ، وشكاستهم وشراستهم ، وشماستهم وتعاستهم ، وغلاظتهم وفظاظتهم ، وأختلاف أديانهم واتساع بلدانهم ، وهلك الطاغية جنكزخان وانتقل إلى الدرك الأسفل من النيران ، واستقر فى لعنة الله وعقابه، وأليم زجره وعذابه فى رابع شهر رمضان الشامل بالفضل والإحسان والبركة النامية الهامية سنة أربع وعشرين وستمية ، فى سرّة ملكه المشوم وأعظم أمصاره أيميل وقوفان وقرأقروم<sup>(٢)</sup> .

واستمرت بعده الفتن والشرور ، والمحن تغيير على ممالك الإسلام وتبوير شرائع خير الأنام ، وتثير غبار الإفساد والمفسدين فى وجوه سنة سيد المرسلين ، وتحصر جنود الإسلام وتقص جيوش العلماء الأعلام ، وتتقص أطراف الأرض وتتقص أركان الدين بعضها على بعض .

وناهيك يا مولانا السلطان بفتن هلاكو تولى بن جنكزخان ، وبعده أبغا ابن هلاكو الذى تجبر وطنى وتكبر وبغى ، وبعده ابنه أرغون ، وبعده ابنه قازان المفتون ، واستمرت بحار الفتن منهم تؤثر عنهم ومرجهايمور ، إلى أن نبغ الأعرج تيمور فأهلك الحرث والنسل واختلط المباح باليسل<sup>(٣)</sup> ، وحل بالعالم الباس وفسدت أحوال الناس ، وإنما ذلك كله بفساد الراس ، ومن جملة فتنهم وطعنهم فى طعنهم ، جالوا فى معركة وصلوا فى دست بركة ، فقتلوا فى مثل حرب البسوس وقطعوا فى ناحية من الروس ، جملة أرادوا ضبط حدها بعد أن أبانوها عن جسدها ، فلم يقدروا أن يحصروها .

(١) أى لم تتكسر .

(٢) قوفان : قرية من قرى دمشق . معجم البلدان (٩٩٨٣) .

(٣) الحرام .

فرسم لتلك البغاة سلطانيا أن يقطع من الرؤوس آذانها ، يقطعون من كل رأس أذنا ، ولتكن الآذان اليمنى فجدعوا آذان بعض الرؤوس وشكوها ، وفي خيوط سلكوها ، ثم فى قلاند ربطوها ، وبعد ذلك ضبطوها فكانت نحو مائتى ألف أذن مجدودة ، وسبعين ألف أذن معدودة .

وإنما ذكرت يا ملك الطير ؛ أمثال ما جرى من الشر والخير ، وجلوت عن مرأة ضميرك المنير صورة ما مر فى الزمان المنير ، وما فعله من ملكه زمام الاقتدار ، وأمهله سلطان السلاطين الذى يخلق ما يشاء ويختار ، وصرفه فى بلاده وعباده وبين له طريق صلاحه وفساده ، وأخبركم أيها الملوك والحكام بأموركم فى دنياكم ، وجلا صور أحوالكم على أعين أبصاركم ، وبين مزاياكم فى مراياكم ، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فانظر ما فى هذه السير من الحكم والعبر ؛ لتعلم أن الدنيا محل الغير ، ومحك العقول والفكر ، والحال بيا هدف لسيام القضاء والقدر ، مبتلى بكل خير وشر ونفع وضر ، غافل عن مواقع الحذر آمن وهو على شرف الخطر ، مقيم وقد جدَّ به السفر مناقش بما مضى من أنفاسه مما حلا ومر ، ومحاسب على ذوات ما اكتسبه ، مطالب بالفتيل والقطمير<sup>(١)</sup> مما ارتكبه .

فلما وصل الحجل فى الكلام إلى هذا المقام ، قبل العقاب بين عينيه وزاد قربه لديه ، وأفاض خلع الإتمام عليه وقال : صدق عليه أفضل الصلاة والتسليم حيث قال ﴿كَلِمَةَ الْحِكْمَةِ ضَالَةٌ كُلِّ حَكِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أى مطالب بكل صغير وحقير .

(٢) الحديث : ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال من طريق أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ ﴿كَلِمَةَ الْحِكْمَةِ ضَالَةٌ كُلِّ حَكِيمٍ﴾ ؛ فإذا وجدها فهو أحق بها .

ونطق بالحق من قال : لا تنتظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .

فأهل التحقيق وذوو النظر الدقيق ، راقبوا المعانى ولم ينظروا إلى القوالب والمباني ، فإن سليمان عليه السلام وهو ملك الجن والأنام ، والوحش والطير ، والهواء والهوام ، ونبي مرسل ، وملك ذو فضل وسلطان الفصل بالعدل ، استفاد النصائح من نملة ، وجمع هدهده مع ملكة سبأ نملة ، ويوجد فى الاسقاط<sup>(١)</sup> ما لا يوجد فى الأسفاط<sup>(٢)</sup> ، ولقد ينطق بالفوائد من هو كافر وجاحد ، فيؤخذ من أقواله ولا يفئدى بأفعاله .

وقد قيل : إن الحسن البصرى<sup>(٣)</sup> رحمة الله عليه ، دخل صبيّ مسجده وصلى بين يديه ، فرآه لا يتم سجوده ولا يرضى بصلاته معبوده ، فدعاه وخاطبه وأنكر عليه وحاقبه ، وقال له : تم سجودك ترضى معبودك ، فقال : يا شيخ المتقين هذه سجدات شخص من المؤمنين ، لو سجد إحداها إبليس لآدم لما كان من الملعونين ، ولو سجدها فرعون مرة لكان من المسلمين ، ولم يصر من أهل العناد المطرودين .

وقيل : ورأى يوماً صبياً ومعه سراج وهو سالك فى منهاج ، فسأله عن ناره وما فيها من أنواره ، من أين أخذها وكيف اقتلذها ، فلم يجاوبه إلا بإطفاء السراج ، وسأله أين ذهب ذلك النور الوهاج ، قل لى أين ذهبت تلك الأنوار ، أقل لك من أين جاءت تلك النار .

(١) الاسقاط : الردىء من متاع البيت .

(٢) الأسفاط : الغالى من متاع البيت .

(٣) الحسن البصرى ؛ من كبار أعلام الزهاد وانتقاة والتابعين ، ولد بالمدينة وسكن البصرة . إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمانه . وكان أعلم الناس بالحلال والحرام فى زمانه ، وكان ورعاً فقيهاً زاهداً . فضائله ومناقبه كثيرة جداً . توفى سنة (١١٠هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

ثم إن العقاب ولَّى الحجل ما تحت يده من رقاب ، وقدمه على سائر الخدم ، وصنوف الطير وأجناسه من الأمم ، وجعله الدستور الأعظم ، والوزير المقدم المكرم .

وفى هذا المقام ، أمسك الحكيم حسيب عن الكلام ، وختم ما افتتحه من الحكم والأحكام بالدعاء والثناء والصلاة والسلام .

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المخجل بأدبه امرأ القيس<sup>(١)</sup> ، وأبا فراس<sup>(٢)</sup> : فلما انتهى الحكيم فى مقترحه ، وما قصده من بيان محاسنه ومِلْجِه ، إلى هذا المحل وفصل من فضله ما أجمل من جمل ، نهض الوزير وقبل قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم به عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ، وملك الكلام يصرفه كيف شاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكما أنه شيخ المنقول وأستاذ المقول ، فمن أنوار ألفاظه تتير العقول ومن كنوز عباراته تستخرج جواهر المعقول ، وأما أخوه الملك فطار بسروره به عن سريره ، واتخذ فى مهام أموره مقام أميره ، ثم أدت آراء فكرته أن يستعمل أخاه لكشف كربته ، ويمشى فى السعى بينه وبين إخوته لرتق ما انفتق ، وسد ما خرقة سيل الحسد فانبتق ، فامتثل أمره العالى ونهض بأمر الله المتعالى ، وأنفق من جواهر أفكاره فى سوق المناصحة الرخيص والغالى ، ورصع ما استخرجه من يواقيت تلك من عباراته بما يستعبد عقود اللالى ، وتعاطى أسباب الإصلاح وساعده لحسن النية وخلوص الطوية السعد والنجاح :

---

(١) امرؤ القيس ابن حجر الكندى ملك بنى أسد ؛ أشهر شعراء الجاهلية ، وإمام الشعراء ، وحامل لواتهم . صاحب المعلقة الأولى . البداية والنهاية (٣٤٥/٧) .

(٢) أبو فراس : ابن عم سيف الدولة الحمدانى ، أمير حلب ، وكان أميراً لإمارة منيخ . الشاعر الأمير الفارس شعره من أجمل وأحسن أشعار العربية . كان يضارع الشاعر الكبير المتنبى . البداية والنهاية (٢٩٧/١١) .

وَهَذَّبَ فِي الْفَضْلِ مَا رَتَّبَهُ      وَرَتَّبَ بِالْفَضْلِ مَا هَدَّبَهُ  
وَأَعْجَبَ ذَا اللَّبِّ مَا شَادَهُ      فَأَتَتْهُ عَلَيْهِ بِمَا أَعْجَبَهُ  
وَأَغْرَبَ فِي الْعَبْقِ إِشْرَاقَهُ      فَلَلَهُ ذَا السَّعْدِ مَا أَغْرَبَهُ  
فَمَا شَدَّ بِالصَّدْقِ عَنْ نَصْحِهِ      وَلَا شَدَّ خِلُّ لِمَا شَدَّبَهُ

فاستمال الخواطر النافرة ، وأطفأ بزالال ألفاظه العذبة شواظ تلك  
النائرة، وسكن بنسيم ملاطفاته ققام الأخلاق الثائرة ، فاطمأنت القلوب ،  
وطهرت من غش التشاحن الجيوب<sup>(١)</sup> ، واتصل بالمحب المحبوب ، وحصل  
الأمن والأمان ومساعدة الزمان ، ومعاضدة الإخوان ومصافاة الخلان ،  
وطيب العيش والمكان ، وأفضل من هذا جميعه شفقة السلطان ، والاستقامة  
على الإسلام والإيمان .

ونسأل الله تعالى إتمام نعمه وإسبال ذيل إحسانه وكرمه ، واللطف في  
القضا والعفو عما مضى ، والمعاملة بإحسانه الجزيل ، وحسبنا الله ونعم  
الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، و صلى الله على سيدنا محمد خاتم  
النبیین، وسيد المرسلين ، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ، من الأختان  
والأصهار ، والمهاجرين والأنصار ، وسلم تسليما يطيب الأقطار ويتمسك  
بأذيال عرفه خياشيم الأزهار في الأسحار ما دامت الأعصار ، ودارت  
الأدوار ، وترادف الليل والنهار ، وحشرنا في زميرتهم مع المصطفين  
الأخيار، إنه كريم ستار حلیم غفار .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : نمقه مؤلفه ولفقه مصنفه ، فقير عفو الله  
تعالى من غير تردد ولا تفكر ولا تعمق في تدبر ، مع توزع البال أحمد بن  
محمد بن عرب شاه الحنفي ، سامحه الله تعالى وعامله بما يرتضيه تفصيلا  
وإجمالا لا بما يقتضيه عدلا وجلالا في أواخر شهر ربيع الأول سنة خمسين  
وثمانمائة .

أحسن الله خاتمتها وعاقبتها ، وجعل آخرها خيرا من أولها  
بمنه وكرمه ، آمين .

(١) الصدور .